بسم الله الرحمن الرحيم

" الْوَلاَءُ للَّهَ والرَّسُول والْمُؤْمنينَ
والتَّحذيرُ من مُوَالاةِ أعداء الدين "

دكتــــور
محمد شبل مصطفى عطية
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله الذى شرع لعباده ما يصلح دنياهم وأخراهم والصلاة والسلام على رسوله الأمين الداعى إلى الهدى وإلى طريق مستقيم وعلى آله وصحبه والتابعين .

الحمد لله ولى النعمة ... مفيض أسرار الهدى والحكمة
على قلوب الراسخين الأصفياء ... من كل مقتف لخير الأنبياء
ثم صلاته مع السلام ... على إمام الرسل الكرام
وآله وصحبه الأعيان ... ما قارىء قرأ القرآن

وبعد ،،،

فلما كان الولاء شعوراً بالمسئولية ، ومن الأمور المهمة التى دعا إليها الإسلام لما يترتب على التمسك به من صلاح أحوال الأمم وتقدمها ، فإن الترابط والمحبة والإخلاص وسائل تؤتى ثمارها ، والتعاون الجاد يساهم فى التنمية والبناء ، ويحمى الأوطان من المخاطر والوسائل الهدامة التى يقوم بها الأعداء من أجل صد الشباب عن مهمتهم الأساسية فى التنمية والبناء ، ورسالة الإسلام جاءت داعية إلى المحافظة على النفس والنسل والمال والعرض والدين والوطن من أجل تكون المجتمعات العمرانية الآمنة وتحقق الخلافة الإنسانية على ظهر الأرض مصداقاً لقوله تعالى { وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة } [1] والمسلمون

(١) البقرة آية ٣٠ .

الأوائل فهموا رسالتهم وعرفوها حق المعرفة ، ومن ثم فقد حق لهم أن يسودوا العالم وأن يقتحموا الصعاب من أجل دينهم وأن يرفعوا رايته فى ربوع الأرض كلها مصداقاً لقوله تعالى { هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً } [1] ومما لا جدال فيه أن تقدم المسلمين وارتفاع كلمتهم فى عصر السلف الصالح إنما كان لأنهم انطلقوا من فهم صحيح لدينهم متمسكين بآداب شرعهم ، لقد جعلوا السيادة لله وحده صاحب التشريع دون عصبية قبلية ، أو شعوبية عنصرية ، وإنما كان جهادهم من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا متمسكين بالمنهج الإلهى { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا .... } [2] ولقد روى أصحاب السنن عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب فقال رجل يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، فقال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " [3] ، فلما حادت الأمة وضلت طريقها وطرحت التشريع جانباً وذهبت تبحث عن

---

(١) الفتح آيتا ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) آل عمران آية ١٠٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب فى لزوم السنة ج٢ ص٢٠٠ ، وابن ماجه فى باب سنن الخلفاء الراشدين ج١ ص١٤ .

تشريعات هى من صنع البشر ، واعتمدت على دول الغرب بحجة التقدم والمدنية وتبادل المصالح والمنافع المادية ، وتناسوا أن التقدم والحضارة فى مبادىء دينهم فأصبح حالهم على ما يرى من ذل وخضوع للدول الإستعمارية ولن تعود للمسلمين عزتهم وكرامتهم إلا بالرجوع إلى دينهم الحق واتحاد كلمتهم تحت راية الإسلام {وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [1] وأن يكون ولاؤهم لله ورسوله وإخوانهم المؤمنين آخذين الحيطة والحذر من الولاء للأعداء ، أو الاستعانة بهم فى قضاء مصالح المسلمين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ولكى نقضى على الوسائل المدمرة للأخلاق والعقول بين الأوطان المسلمة فلنقتد بالسلف الصالح لتعود للمسلمين العزة والكرامة ويتحقق لهم الأمن والاستقرار قال تعالى { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا } [2] وقال سبحانه { ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز } .[3]

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٢ وما بعدها .
(٢) سورة النور آية ٥٥ .
(٣) سورة الحج آية ٤٠ .

تمهيد :

وليكون القارىء الكريم على بصيرة من هذا البحث فقد وضعت له خطة وجيزة ليكون واضح البيان إبتدأته بالمقدمة وتتعلق بالحث على الولاء والترابط ، ثم أوضحت معنى الولاء ودلائله ، ثم أشرت إلى بيان الولاء الحقيقى ولمن يكون ؟ وأوضحت ذلك تحت عناوين ثلاثة :

أولها : الولاء الحقيقى لله سبحانه وحده لا شريك له مع الاسترشاد ببعض دلائل القرآن والسنة الشريفة على ذلك .

ثانيها : الولاء للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل التبع وأوضحت وجه خصوصية صلى الله عليه وسلم بالولاء والطاعة مع الاسترشاد بدلائل القرآن والسنة والشرح والتوضيح الكامل .

ثالثها : الولاء للمؤمنين المتقين كذلك على سبيل التبع مع الاسترشاد بدلائل من القرآن والسنة ، والتوضيح الكامل لكيفية الولاء وأثره .

ثم وضعت قسما آخر يتعلق بالتحذير من موالاة أعداء الدين أشرت فيه إلى التحذير من موالاتهم وقسمت هؤلاء إلى أقسام ثلاثة :

أولها : التحذير من الولاء لليهود والنصارى مع الاسترشاد ببعض الأدلة بالشرح والبيان .

وثانيها : التحذير من الولاء للمنافقين والمشركين . مع التوضيح والبيان الدلائل .

ثالثها : التحذير من موالاة الكفار مع الاسترشاد بالدلائل بالشرح والتحليل

مع بيان حكم الاعتماد عليهم فى الأعمال أو الحرب ومن حيث التصدق عليهم وبيان سماحة الإسلام فى معاملاتهم ، ثم خاتمة البحث وكانت فى بعض التوصيات وبيان وسائل الأعداء فى تشويه معالم الإسلام .

ومما دفعنى إلى تدوين هذا البحث اليسير سؤال الكثير لماذا ندين لغيرنا بالولاء والطاعة . أليس لدينا كتاب الله وسنة رسوله ؟ أليس لدينا علماء ومفكرين وخبراء فى جميع المجالات ؟ أليس لدينا من خيرات الله ما يكفي الجميع ، فلماذا لم نعتمد على طاقتنا ومجهودنا ؟ لذلك سجلت هذا البحث ليكون الجميع على بينة من أمره حتى يكون الخضوع لله دون غيره وتتحقق عزة المسلمين { ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين } [١] إذا تحقق فيهم نصرة دين الله قال تعالى { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور } [٢] وسميته (الولاء لله ورسوله والمؤمنين والتحذير من موالاة أعداء الدين) ليتفق المضمون مع التسمية ، وآمل من الله أن ينفع به الجميع إنه سميع بصير ....

دكتور

محمد شبل مصطفي عطية

---

(١) المنافقون آية ٨ .

(٢) الحج أيتا ٤٠ ، ٤١ .

التعريف بالولاء :

قال الراغب : الولاء والتوالى حقيقته تولى الأمر ويستعار للقرب من حيث المكان ومن حيث النية ومن حيث القرب ، ومن حيث الصداقة والنصرة والإعتقاد ، والولاية النصرة ، وتولى إذا عدى بنفسه اقتضى معنى الولاية كقوله تعالى { فلنولينك قبلة ترضاها } [1] وإذا عدى بمن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض كقوله تعالى { فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين } [2] والموالاة بين الشيئين المتابعة والولاية تولى الأمر ، والوالى والمولى يستعملان فى ذلك كل واحد منهما " [3] ويتولى ينصر ويؤيد ويتولهم يحبهم وينفعهم والولى للمرأ من يقوم بأمره ويقوم مقامه كولى الصبى والمجنون والوكيل والمولى للمرء من له صلة به لصداقة أو قرابة ويجمع الولى على أولياء والوالى للإنسان من ييسر له الخير " [4] وفى نظرى أن الولاية هى التسليم للغير ، وتفويض الأمر إليه بحيث يصير له السيطرة الكاملة والتصرف فى شئون الإنسان كولى الأمر وولى النعمة ، والوالى الذى يرعى المصالح العامة للمسلمين ، ويطلق على القائد العام للدولة ، وعلى رؤساء المصالح والقائمين على شئون الرعية . وقد جعل الله الولاية الحقيقية له لكونه صاحب الفضل والنعم ، المتصرف فى شئون خلقه كيفما يشاء ، وكذلك الولاية لرسوله صلى الله عليه وسلم لكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو الرحيم بهم ، وكذلك الولاية للمؤمنين من عباد الله على سبيل التبع لكونهم متراحمين متعاونين ، وإذا كنا خلفاء لله فى أرضه نعمرها بالطاعة ، ولكى نحقق الخلافة البشرية على

---

(١) من الآية ١٤٤ من سورة البقرة .
(٢) التغابن آية ١٢ .
(٣) مفردات الراغب الأصفهانى ص٥٣٣ - ٥٣٤ بتصرف .
(٤) البرهان فى غريب القرآن ص٤٩٣ - ٤٩٤ .

ظهر الأرض فلذلك ألزمنا الشرع الحكيم بالولاء لله ولرسوله وأولى الأمر القائمين على رعاية شئون البشر قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر } [1] وجعل سبحانه الولاية الحقة له ولرسوله وللمؤمنين فقال {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون } [2] ونفى الموالاة بين المؤمنين والكافرين فى غير آية من كتابه قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق } [3] وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة فى الدنيا فقال تعالى { إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون } [4] وجعل للشيطان عليهم سلطاناً فقال { إنما سلطانه على الذين يتولونه ..... } [5] ، ونفى الموالاة بينهم فى الآخرة قال تعالى { وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم .... } [6] ونفى سبحانه الموالاة بين الكفار فى الآخرة قال تعالى { يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون } [7] ، وأخبر سبحانه عن تبرى المتبوعين فى الآخرة ممن اتبعوهم فى الضلال والكفر والإغواء فى الدنيا ، قال تعالى { إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتُّبِعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم

---

(١) النساء آية ٥٩ .
(٢) المائدة آية ٥٥ .
(٣) الممتحنة آية ١ .
(٤) الأعراف آية ٢٧ .
(٥) النحل آية ١٠٠ .
(٦) إبراهيم آية ٢٢ .
(٧) الدخان آية ٤١ ، وانظروا مفردات الراغب ص٥٣٤ بتصرف .

الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار } [1] وإذا كان الأمر كذلك ، فلا ولاء إلا لله وحده على سبيل الحقيقة ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم على سبيل التبع لله ، لأنه مرسل من الله سبحانه لجميع البشر { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً .... } [2] ، وكذلك لصالح المؤمنين كما قال تعالى { إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير } [3] . فالولاية بالتعرف والنصرة تكون لله بإسلام الوجه إليه وحده .

لمن تكون الولاية الحقة :

إن من رحمة الله بعباده أن فضل بعض الناس على بعض فى الرزق قال تعالى { والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق } [4] الآية لكونه سبحانه أعلم بشئون خلقه وبما يصلحهم كالطبيب المداوى ، فجعل العباد متفاوتين فى الأرزاق لتكون بينهم علاقات مودة وتراحم ، وبر وصلة ، ولتكون بينهم مصالح مشتركة يسودها التكافل والتعاون ، فشرع للفقراء حقاً فى مال الأغنياء قال تعالى { والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم }[5] ، كما فضل سبحانه بعض الناس على بعض فى الدرجة والمنزلة ليكون هناك رئيس ومرءوس من أجل قضاء المصالح ، ولتسير الأعمال على النسق الطبيعى المطلوب ، لتحقق المنفعة والمستوى

---

(١) البقرة آيتا ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) سبأ آية ٢٨ .
(٣) فى التحريم آية ٤ .
(٤) النحل آية ٧١ .
(٥) المعارج آيتا ٢٤ ، ٢٥ وشبيهتها فى الذاريات .

المناسب للمعيشة قال تعالى { أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ...} [1] والتشريع الإسلامى أمر بالولاء بين المسلمين ، والطاعة بين الرؤساء والمرؤسين والقادة والرعية ، من أجل نشر الألفة والمحبة بين الجميع ، وتحقق عمل أفضل وجهود مثمرة ، وبناء متكامل فى المجتمع المسلم ، روى مسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى } [2] ، ولقد حدد الإسلام مفهوم الولى الحقيقى فى كونه يوالى الله بطاعته ويواليه الله بإحسانه وعطفه ، قال تعالى { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .... } [3] وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى قال " من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه .... " [4] فإذا كان بهذه

---

(١) الزخرف آية ٣٢ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ج٢ ص٤٣١ .

(٣) الحشر آيتا ٧ ، ٨ .

(٤) انظر رياض الصالحين باب علامة حب الله العبد ص١٧٠ - ١٧١ .

المثابة تحققت ولايته لما يتصف به من الأخلاق النبيلة والصفات الحسنة والإيمان الصادق ، والإحسان بمفهومه الشامل وصدق النية والقول ، والتمسك بالقرآن والسنة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى وصفه ربه عز وجل بقوله {وإنك لعلى خلق عظيم } [1] .

والولاء الحقيقى يكون لله على سبيل الحقيقة ولرسوله ولصالح المؤمنين على سبيل التبع قال تعالى { إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [2] حيث فسر الولى فى الآية بمعنى الناصر ، أو المتولى الأمر أو المحب ، والمعنى لا ولى لكم إلا الله بطريق قصر الولاية عليه ، والمراد أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم إلى غيرهم ، وأفرد التولى مع تعدده للإيذان بأن الولاية أصالة لله تعالى ، وولاية رسوله عليه السلام والمؤمنين بطريق التبعية لله عز وجل فالواجب افراد الله بالولاية ومعه رسوله والمؤمنون { الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون } فى خشوع وخضوع بلا نفاق ولا رياء ، ومن يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه هو الناجى الفائز لأن حزب الله هم الغالبون ، وقد تحقق ما وعد الله به أولياءه وأولياء رسله وأولياء عباده المؤمنين من الغلب على عدوهم قال تعالى { وإن جندنا لهم الغالبون } [3] وقال تعالى { إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير } [4] ، والمراد من الآية السابقة كمال رغبتهم فى

---

(١) القلم آية ٤ .
(٢) المائدة آيتا ٥٥ ، ٥٦ .
(٣) الصافات آية ١٧٣ .
(٤) الحج آية ٣٨ .

الإحسان ومسارعتهم إليه ، ويحمل الركوع على الخضوع ، أى يؤتون الصدقة وهم متواضعون للفقراء واختار لفظ الجمع وإن كانت الاية قد نزلت فى على بن أبى طالب – كما أشار السيوطى فى أسباب النزول – لترغيب الناس فى مثل فعله ، والعبرة بالعموم كما ذهب علماء القرآن ، وعلى كرم الله وجهه من المؤمنين .

معنى الولاية لله تعالى :

تفويض الأمر إليه والاعتماد عليه وحده ، والتوكل عليه والاستعانة به على قضاء الحوائج قائلين { إياك نعبد وإياك نستعين } [1] ، لكونه الخالق والرازق قال تعالى { الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل } [2] ، وقال تعالى { إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر * ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر } [3] فالكون كله خاضع لله تعالى بسننه ونواميسه ، والإنسان يعيش فى ظل النظام الكونى معتقداً بأن الله هو صاحب التصرف فى ملكه { ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين * أدعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين ... } [4] ، وتتحقق طاعته سبحانه بالتوبة والتخلى عن سائر الذنوب والمعاصى ، والمراقبة التامة أن تعلم النفس بأن الله مطلع عليها ، عالم بأسرارها رقيب على أعمالها ، قال الحكيم :

---

(١) الفاتحة آية ٥ .
(٢) الزمر آية ٦٢ وشبيهتها فى الأنعام .
(٣) القمر الآيات من ٤٩ – ٥١ .
(٤) الأعراف آيات ٥٤ – ٥٦ .

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تُخْفِي عليه يغيب[1]

ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يسلم له جميع جوارحه ، قال تعالى { قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين } [2] وقال تعالى " لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغرت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولىُ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أوْليآؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } [3] بل إن خليل الرحمن أسلم لله جوارحه قلباً وقالباً { إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون } [4] ، وأمر الله بمتابعته على ملته قال تعالى { إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين } [5] ، فالله متفرد بالعزة والسلطان فهو رب العالمين ومالك يوم الدين ، وخالق كل شىء فهو الحقيقى بالولاء والطاعة والعبادة والتقديس ، وهو صاحب النعم قال تعالى { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم

---

(١) انظر منهاج المسلم ص٨٩ .
(٢) الأنعام اية ١٦٢ - ١٦٣ .
(٣) البقرة أيتا ٢٥٦ - ٢٥٧ .
(٤) البقرة من ١٣١ - ١٣٣ .
(٥) آل عمران آية ٦٨ .

كفار } [1] ، وقال تعالى { وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة } [2] ، وفى الحديث القدسى المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل " يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم أياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " [3] ، وإذا كان الله وحده صاحب السلطان الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وصاحب الرزق { وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين } [4] وجب أن نؤمن بوحدانيته ، وأن نعلم أن إرادته نافذة { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون } [5] وأن نصفه بصفات الجلال والكمال وننزهه

---

(١) إبراهيم آية ٣٤ .
(٢) فى الآية ٢٠ من سورة لقمان .
(٣) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم جـ٢ ص٤٢٩ عن أبى ذر رضى الله عنه .
(٤) سورة هود آية ٦ .
(٥) يس آيتا ٨٢ ، ٨٣ .

عما يضادها ، وأن يكون الحب فيه والبغض فيه ، وأن نجاهد من كفر به ، وأن نطيعه فى كل ما أمر به ونهى عنه [1] ، وأن نفوض الأمر إليه ونتوكل عليه لما جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرفوعاً " لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " [2] ، والتوكل صدق اعتماد القلب فى استجلاب النفع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة ، أو هو الأخذ بالأسباب وترك النتائج على الله ، ولقد أمر الله بطاعته فقال تعالى { قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين } [3] كما أمرنا بنصرة دينه والجهاد فى سبيله فقال تعالى { يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين } [4] وجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال يا غلام " إنى أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك ، إحفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف" [5] ، ونصرة الله ونصرة دينه ورسوله تكون بالجهاد فى سبيله

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٩٨ بتصرف .

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والنسائى وانظر جامع العلوم والحكم ص٥٢٧ وابن ماجه فى كتاب الزهد باب التوكل واليقين ج٢ ص١٣٩٤ .

(٣) آل عمران آية ٣٢ .

(٤) الصف آية : ١٤ .

(٥) رياض الصالحين باب المراقبة ص٤٢ نقلاً عن سنن الترمذى . وانظر مختصر النبراوى ص٦٥ - ٦٦ .

لتكون كلمة الله هى العليا ، قال تعالى { وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير } [1] ، قال الشيخ الشوكانى المراد بالجهاد هو الجهاد الأكبر ، وهو الغزو للكفار إذا غزوا بلاد المسلمين ، وقيل المراد بالجهاد امتثال ما أمرهم الله به فى الآية المتقدمة عليها ، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم ومعنى (حق جهاده) المبالغة فى الأمر بهذا الجهاد ، وقيل المراد بحق جهاده هو أن لا يخافوا فى الله لومة لائم ولما كان فى بعض التكاليف مشقة على النفس فى بعض الحالات قال { وما جعل عليكم فى الدين من حرج } أى ضيق وشدة ، أى ما جعل عليكم حرجاً بتكليف يشق عليكم ، أو قصر الصلاة والافطار للمسافر ، وأمر باتباع ملة أبيهم إبراهيم لأنه أبو العرب قاطبة {هو سماكم المسلمين من قبل } فى الكتب المتقدمة ، وفى هذا القرآن {ليكون الرسول شهيداً عليكم } بتبليغه إليكم ، {وتكونوا شهداء على الناس } أن رسلهم قد بلغتهم ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال { فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما { واعتصموا بالله } أى اجعلوه عصمة لكم مما تحذروه والتجئوا إليه فى جميع أموركم { هو مولاكم } أى ناصركم ومتولى أموركم جليلها ودقيقها { فنعم المولى ونعم النصير} أى لا مماثل له فى الولاية على أموركم ، والنصرة على أعدائكم ، وقيل المراد فى قوله {واعتصموا بالله } تمسكوا بدين الله ، وقيل ثقوا به تعالى) [2] ، واتقوه حق تقواه لقوله تعالى

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ .

(٢) فتح القدير ج٣ ص٤٧١ - ٤٧٢ بتلخيص وتصرف .

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } [1] الآية ومن حق تقواه { أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر ، فإذا ما تحقق ذلك كان جزاء المتقين بالجنات التى أعدها الله لهم قال تعالى { وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .... } [2] ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن ينكر على المشركين اتخاذ أولياء غير الله ، فقال تعالى { قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين * قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم } [3] وجاء فى الحديث القدسى المروى عن عمر عن أبى هريرة رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى " أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم ، وإن تقرب إلى بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتانى يمشى أتيته هرولة " [4] .

وفى آية المائدة السابقة { إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا } الآية .

---

(١) آل عمران آية ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) آل عمران الآيات ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣) الأنعام آيتا ١٤ ، ١٥ .

(٤) رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله ج٢ ص٤٦٦ وانظر : الأحاديث القدسية باب ما جاء فى حسن الظن بالله ج١ ص٦٢ ط بيروت .

ما يوحى بأساس الولاية الحقة والاية نزلت كما جاء عن جابر بن عبد الله الأنصارى فى عبد الله بن سلام قال جابر جاء عبد الله بن سلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : إن قومنا من قريظة والنضير قد هاجرونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل فنزلت هذه الآية : فقال رضينا بالله ورسوله والمؤمنين أولياء [1] ، (والذين) عام فى جميع المؤمنين ، وقد سئل أبو جعفر محمد بن الحسين عن معنى الآية هل هو فى على بن أبى طالب ، فقال على من المؤمنين ، يذهب إلى أن هذا لجميع المؤمنين ، وقال ابن عباس نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه [2] ، وقال الشيخ سليمان الجمل (نزلت فى عبادة بن الصامت) حين تبرأ من اليهود ، وهى وإن كانت خاصة بسبب النزول فالحكم عام للجميع لكون العبرة بعموم اللفظ روى مسلم فى صحيحه عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم جهاراً غير سر يقول { ألا إن آل أبى يعنى فلانا ليسوا لى بأولياء وإنما ولىى الله وصالح المؤمنين .[3]

الجزاء المترتب على اتخاذ الله وليا :

أما الجزاء المترتب على اتخاذ الله وليا فى الدنيا ، فإنه سبحانه يخرج أولياءه من الظلمات إلى النور ، قال تعالى { الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور } [4] فهو وليهم يتولى أمرهم ويهديهم طريقهم ، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم ويخرجهم من ظلمات الشرك والشك والشبه إلى نور العلم

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص١١٣ وانظر أسباب النزول للسيوطى .
(٢) تفسير القرطبى ج٤ ص٢٢١٨ .
(٣) أخرجه مسلم فى باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم جـ١ ص١١٠ .
(٤) البقرة آية ٢٥٧ .

والمعرفة واليقين وينصرهم على عدوهم كما قال تعالى { وإذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون } [1] ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، قال تعالى { وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم } [2] ، كما أن الله يحبهم ويرضى عنهم حيث يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، بالإضافة إلى ما فى الجنة من النعيم المقيم إذ " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " فهل بعد هذا من نعيم لمن أحب الله ورسوله روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى .... "[3] وهكذا تتحقق الغاية من خلق الإنسان ، قال تعالى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين } .[4]

ثانياً : الولاية للرسول صلى الله عليه وسلم :

اختار الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون خاتما لرسل الله الكرام ، وختم برسالته الرسالات السماوية كلها ، وجعلها عامة وباقية إلى قيام الساعة ، فكانت صالحة لكل زمان ومكان { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا } [5] فكان صلوات الله وتسليماته عليه السراج المنير ،

(١) الأنفال آية ٢٦ .
(٢) التوبة آية ٧٢ .
(٣) رواه مسلم فى كتاب البر وصلة الأرحام – باب فضل الحب فى الله جـ٢ ص٤٢٥ .
(٤) الذاريات الآيات من ٥٦ – ٥٨ .
(٥) المائدة آية ٣ .

والرحمة المهداه ، قال تعالى { يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً }[1] بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق ، كما جاء فى الحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [2] فرحم الله به الإنس والجن والحيوانات كما قال تعالى { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } [3] فكان بالمؤمنين رحيما لكونه أولى بهم من أنفسهم ، فهو من جنسهم ويشق عليه عنتهم ومشقتهم ، يحرص على نفعهم وهدايتهم ، ورحيما بهم وبغيرهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فإن رحمته تعم من اتبعه فقط قال تعالى { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم }[4] وقال تعالى { النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض } [5] ومن الولاء له صلى الله عليه وسلم ، احترامه وتوقيره فى حياته وبعد مماته ويكون ذلك بإجلاله والتواضع له ، واحترام سنته وتطبيقها ، والذب عنها ضد الأعداء وتمحيص السنة من الدخيل عليها ، والأكاذيب المنسوبة إليها ، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً }[6] ، قال

---

(١) الأحزاب الآيات من ٤٥ – ٤٨ .
(٢) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى كما فى إحياء علوم الدين ج٢ ص٣٨٧ ، وأخرجه أحمد ج٢ ص٢٨١ عن أبى هريرة .
(٣) الأنبياء آية ١٠٧ .
(٤) التوبة آية ١٢٨ .
(٥) الأحزاب آية ٦ .
(٦) النساء آية ٥٩ .

الشيخ أبو حيان : أطيعوا الله فى فريضته والرسول فى سنته ، وقال ابن زيد : فى أوامره ونواهيه ، والرسول مادام حياً وسنته بعد وفاته ، وقيل فيما شرع ، والرسول فيما شرح والمراد بأولى الأمر منكم أمراء الحق ، لأن أمراء الجور الله ورسوله بريئان منهم { فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول } قال مجاهد وقتادة والسدى والأعمش : فردوه إلى كتاب الله وإلى رسول الله فى حياته وإلى سنته بعد وفاته ، أى وإن اختلفتم وأولوا الأمر فى شيء من أمور الدين فردوه وارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة [1] ، بل إن الأوامر الربانية والتوجيهات الإلهية فى مطلع سورة الحجرات لدليل قاطع على ذلك ، قال تعالى " يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ....} [2] ، والإسلام أوجب التكريم له صلى الله عليه وسلم عند مناداته ، اقتداء بأمر الله فى ذلك ، ومناداته بأساليب التكريم (يأيها الرسول) و(يأيها النبى) ولذلك حذرنا من مناداته باسمه مجرداً كما حدث من الذين نادوه من وراء الحجرات لجهلهم بكرامته عند ربه ، ولذلك وصف القرآن أكثرهم بعدم العقل ، ولو صبروا حتى يخرج إليهم لكان خيراً لهم ، قال تعالى {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم } [3] .

---

(١) البحر المحيط جـ٣ ص٦٨٦ - ٦٨٧ تلخيصاً .
(٢) الحجرات الآيات من ١ - ٣ وما بعدها .
(٣) النور آية ٦٣ .

أما بعد موته صلى الله عليه وسلم فيتحقق الولاء له باتباعه والاقتداء بسنته ، وجعله المثل الأعلى فى القدوة الحسنة { لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً } [1] ، وبالحرص على سنته بالفهم والتطبيق ، قال تعالى { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله الآية } [2] ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم " [3] كما يكون الولاء له بمحبته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم } [4] ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما جاء عن أنس رضى الله عنه " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " [5] ، ويتحقق الولاء كذلك بالنصيحة له صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث " الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " [6] ، والنصيحة له صلى الله عليه وسلم بذل المجهود فى طاعته والتصديق بنبوته ، والإيمان به وبما جاء به ، وتوقيره وتبجيله ومعاونته ونصرته ، والتخلق بأخلاقه ومحبة آله وأصحابه ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ، والعناية بطلب سنته ، وآدابه ، وتعظيم أمره وإحياء سنته [7] واقتفاء أثره ،

---

(١) الأحزاب آية ٢١ .
(٢) الحشر آية ٧ .
(٣) رواه مسلم فى كتاب الفضائل باب توقير النبى ج٢ ص٣٣٧
(٤) آل عمران آية ٣١ وما بعدها .
(٥) رواه مسلم فى وجوب محبة رسول الله ج١ ص٣٨ .
(٦) رواه مسلم فى كتاب الايمان ج١ ص٤٢ .
(٧) جامع العلوم والحكم ص٩٨ بتلخيص وتصرف .

وترسم خطاه فى جميع مسالك الدنيا والدين ، وتصديقه فى كل ما أخبر به ، وإجلال اسمه وتوقيره عند ذكره ، والصلاة عليه ، وتقدير شمائله وفضائله ، وخفض الصوت عند قبره وفى مسجده [1] لمن ذهب لزيارته ، والعمل بوصاياه وشمائله ، فإذا ما تحقق ذلك كان الولاء له صلى الله عليه وسلم ، ومن الولاء له تبليغ شريعته وإحيائها على مر الزمن ، وعلى أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى قال تعالى { قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين } [2] فإذا ما تحقق الولاء تحقق الفوز والنصرة قال تعالى { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } [3] حيث ينصرهم ويحبهم بمحبة رسولهم .

جاء عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أنا أولى بالمؤمنين من ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلىّ " [4] فكان عليه السلام زعيم المؤمنين وقدوة الهداة والراشدين ، وهو المثل البشرى الأعلى فى الصدق والأدب ، وحسن الخلق فكان خلقه القرآن فى جميع تصرفاته وحركاته وسكناته ، ولذلك أمر الله بطاعته قال تعالى { من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً } [5] بل قد جعل الله طاعته سببا فى رضاه عن العبد وجعله فى مراتب النبيين والصديقين ، قال تعالى { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

---

(١) منهاج المسلم ص٨٥ .
(٢) يوسف آية ١٠٨ .
(٣) المائدة آية ٥٦ .
(٤) رواه أبو داود فى كتاب الخراج والأمارة باب فى أرزاق الذرية ج٣ ص١٣٧ .
(٥) النساء آية ٨٠ .

والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً } [1] ، وقد أمر الله بطاعته صلى الله عليه وسلم فى غير موطن من كتابه فقال تعالى { قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول } [2] ، وقال تعالى { قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين }[3] وروى عن ابن عباس أنه لما نزل { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله } قال عبد الله بن أبى لأصحابه إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ، ويأمر بأن نحبه كما أحبت النصارى عيسى بن مريم فنزل { قل أطيعوا الله والرسول الآية [4] ، وفى ختم الآية { ما يدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر ، وإن ادعى وزعم أنه محب لله ويتقرب إليه ، والله لا يحب من اتصف بذلك حتى يتابع الرسول النبى الأمى ، الذى لو كان الأنبياء فى زمانه ما وسعهم إلا اتباعه ، والدخول فى طاعته واتباع شريعته [5] ، قال تعالى { ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون } [6] ، وجاء فى الحديث الذى أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قيل ومن يأبى يا رسول الله ، قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى .[7]

---

(١) النساء آيتا ٦٩ - ٧٠ .
(٢) النور آية ٥٤ .
(٣) آل عمران آية ٣٢ .
(٤) تفسير أبى حيان جـ٣ ص٠٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٥٨ بتصرف .
(٦) الأعراف آيتا ١٥٦ - ١٥٧ .
(٧) رياض الصالحين باب فى المحافظة على السنة وآدابها ص٨٤ .

ثالثاً : الموالاة للمؤمنين :

ان من تمام النعمة التى أنعم الله بها على عباده المسلمين أن جمعهم على دين واحد ، وربط بين قلوبهم برباط التآخى والمحبة ، قال تعالى { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخواناً } [1] قال البيضاوى " أى بدين الإسلام أو بكتابه مجتمعين عليه ، ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب ، أو لا تتفرقوا تفرقكم فى الجاهلية ، يقاتل بعضكم بعضاً ، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة ، {واذكروا نعمة الله عليكم } بالهداية و التوفيق للإسلام المؤدى إلى التآلف وزوال الغل { إذ كنتم أعداء } فى الجاهلية { فألف بين قلوبكم } بالإسلام {فأصبحتم بنعمته إخوانا} متحابين مجتمعين على الأخوة فى السلم [2] مترابطين فى العقيدة ، وهى أفضل رباط يؤدى إلى التمسك والوحدة ، قال تعالى { إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون } [3] وهذا مدح للأمة المؤمنة بربها ورسولها ، عاملة من أجل تحقق الخلافة الإنسانية ، فاستحقت المدح والثناء من ربها بقوله {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .... } [4] ، فهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، يريدون الآخرة ويعملون لها ، قال تعالى {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً } [5] لأنهم جعلوا الدنيا مزرعة للآخرة ، قال الحكيم :

---

(١) آل عمران آية ١٠٣ .
(٢) تفسير البيضاوى ج١ ص١٧٥ .
(٣) الحج آية ٩٢ .
(٤) آل عمران آية ١١٠ .
(٥) الإسراء آية ١٩ .

إن للـــه عبـــاداً فطنـــا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

ولقد هدد الله من حاد عن الحق وارتد عن دينه فقال تعالى { يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ...} [1] ، قال ابن كثير " لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم قوم هذا شأنهم ، وهذه صفات المؤمنين الكمل ، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه ، كما قال تعالى { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً . الآية } [2] يجاهدون فى سبيل الله لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة حدوده ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ولا يصدهم صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم [3] فإن من كان قوياً فى الدين ، لا يخاف فى نصرته للدين بيده أو بلسانه لومة لائم ، وهذه صفة المؤمنين المخلصين ، أخرج الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال " أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرنى أن أنظر إلى ما هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرنى أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مراً ، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنز تحت العرش " [4] ، ولقد روى ابن ماجه عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : عن

---

(١) المائدة آية ٥٤ .
(٢) الفتح الآية الأخيرة .
(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٠ .
(٤) المرجع السابق وانظر مسند الإمام أحمد .

النبى صلى الله عليه وسلم قال : المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد على أقصاهم [1] ، ولما كان المؤمنون كذلك جعل الله الولاة لهم على طريق التبع ، بآداب سلوكية قويمة تتحقق فيهم ، كالتعامل مع الوالدين ، وتعامل الوالدان مع أبنائهما ، والتعامل مع الجيران بحسن أدب كما جاء فى الحديث المروى عن أبى هريرة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت " [2] ، وتعامل المسلم مع أخيه المسلم بعطف وإحسان ، وله حقوق عليه ، من رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس ، كما أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وكذلك الولاء لأولى القربى كما قال تعالى { وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ... } [3] ، وكما جاء فى الحديث القدسى الذى أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله أنا الرحمن وهى الرحم شققت لها اسما من اسمى من وصلها وصلته ومن قطعها بتته " [4] ومن الولاء للمؤمنين المواساة لهم بالمال ، وأن يكون كلا منهما عوناً لصاحبه يقضى حاجته وأن يعفو عن ذلاته ، ويتغاضى عن هفواته ويستر عيوبه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، وأن يكف عنه لسانه فلا يذكره إلا بخير ، وأن لا يكلفه ما يشق عليه ، فعن أبى سعيد الخدرى

---

(١) سنن ابن ماجه ج٢ ص٨٩٥ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم .
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الحث على اكرام الجارج١ ص٣٩ .
(٣) الأنفال الآية الأخيرة .
(٤) الأحاديث القدسية ما جاء فى خطاب رب العزة للرحم ج١١٣ ص١١٦ - ١١٧ .
وسنن أبى داود كتاب الزكاة باب فى صلة الرحم ج٢ ص١٣٦ .

رضى الله عنه ، قال " بينما نحن فى سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على راحلة فجاء يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل " [1] ، ولذلك أقر الله بولاية المؤمنين فقال { إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } [2] يتحقق نصرتهم فى الدنيا والآخرة ، ما داموا ملتزمين بالمحافظة على شعائر الإسلام ، وعلى رأسها إقامة الصلاة التى هى صلة بين الخالق والمخلوق ، ومعراج روحى كل يوم خمس مرات ، وإيتاء الزكاة التى هى صلة بين العباد ، حيث تربط بينهم برباط المحبة والمودة ولذلك امتدحهم الله بقوله { والذين هم للزكاة فاعلون } [3] ، اعترافاً منهم بأن للفقير حقاً فى مال الغنى ، ليتم التكافل ، وليتحقق التراحم بين الناس ، والقضاء على الجرائم البشعة من السرقة والاغتصاب ، والقتل والنصب والغش وغير ذلك مما يؤدى إلى فساد المجتمع ، إذ لم تتحقق الرحمة بين أبنائه ، فلو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عار ، وقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما أرسله إلى اليمن ، قال " إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا

---

(١) رياض الصالحين باب الإيثار والمواساة ص٢٣٩ وصحيح مسلم باب استحباب المواساة بفضول المال ج١ ص٦٨ .

(٢) المائدة آيتا ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) المؤمنون آية ٤ .

لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب [1] ، إن الولاية للمؤمنين هى ولاية أخوة ومودة ومحبة ، قال تعالى { إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون } [2] ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما جاء عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " [3] ، فهى ولاية نصرة فى الدفاع عن الحق والعدل والكرامة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن الله حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فكانوا أحقاء بالولاية وأحق بها وأهلها ، والولاية للمؤمنين بمعنى الاعتماد عليهم فى قضاء بعض المصالح عن طريق صحبتهم ، سواء أكانت دنيوية كالانتفاع بالمال أو الجاه ، أو الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة ، أو دينية فيجتمع فيها أغراض مختلفة : منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة ، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت ، ومنها الاستعانة فى المهمات فيكون عدة فى المصائب ، وقوة فى الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة ، يقال إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه ، وقال سهل بن عبد الله " اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين [4] ، ولقد أمر الإسلام بالتعاون بين المؤمنين من أجل قضاء المصالح ، قال

---

(١) صحيح البخارى باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن ج٣ ص٧٣ صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان ج١ ص٢٩ .

(٢) الحجرات آية ١٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ج٤ ص٥٥ بحاشية السندى .

(٤) احياء علوم الدين ج٢ ص١٨٥ ، ١٨٧ .

تعالى { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب } [1] ، وحث الإسلام على المودة والمحبة من أجل تحقق الولاء بين المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم فى حديثه " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار " [2] ، ومن علامة كمال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، وأن يسانده عند الابتلاء ويفرج كربه عند الحاجة ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم فى حديثه المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " [3] ، كما يكون الولاء للمسلمين بنصرتهم لما جاء فى الحديث المروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً قال تأخذ فوق يديه " [4] ، ومن تمام الولاء للمسلم النصح له كما جاء فى حديث

---

(١) المائدة آية ٢ .

(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان جـ١ ص١٢ عن أنس رضى الله عنه .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ج٢ ص٤٧٣ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب المظالم باب انصر أخاك ظالما أو مظلوما ج٢ ص٦٦ بحاشية السندى عن أنس رضى الله عنه .

" الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " [1] ، ويكون النصح لهم بتوجيههم إلى الصواب وأن يشفق عليهم ، ويرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم ، ويحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم ، ويحب ما يصلحهم ، ويديم ألفتهم ، وينصرهم على عدوهم ، ويدفع كل مكروه وأذى عنهم [2] ، وأن يرشدهم إلى ما فيه الخير والصلاح ، فالمؤمن مرآه أخيه قال تعالى { والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم }[3] ، قال الشيخ الشوكانى "أى قلوبهم متحدة فى التوادد والتعاطف والتراحم والتحابب ، بسبب ما جمعهم من أمر الدين ، ثم بين أوصافهم الحميدة فقال (يأمرون بالمعروف) أى فيما هو معروف فى الشرع (وينهون عن المنكر) أى عما هو منكر فى الدين ، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من بين جملة العبادات ، لكونهما الركنين العظيمين ، فيما يتعلق بالأبدان والأموال (ويطيعون الله ورسوله) بفعل ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه [4] ولا بأس بالقيام لمن فيه علم وفضيلة وصلاح أو شرف أو سيادة ، أو له حرمة بولاية أو ولادة أو غيرهما على سبيل الاحترام والاكرام ، لا للرياء والاعظام ، بل ذلك مستحب وقد ثبت القيام للإكرام من فعل رسول الله ، وفعل أصحابه رضى الله عنهم بحضرته وبأمره ، ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء والصالحين [5] ، بل أمر الله باتباع سبيل المؤمنين قال تعالى { ومن يشاقق

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان عن تميم الدارى ج١ ص٤٢ .
(٢) جامع العلوم والحكم ص٩٨ بتصرف .
(٣) التوبة آية ٧١ .
(٤) فتح القدير للشوكانى ج٢ ص٣٨١ .
(٥) التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى ص١٢٣ .

الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً] [1] ، والآية عامة فى كل ما يشاقق الرسول [من بعد ما تبين له الهدى] أى اتضح له الحق الذى هو سبيل الهداية ، وسبيل المؤمنين : هو الدين الحقيقى الذين هم عليه ، فالوعيد فى الآية مترتب على من اتصف بمشاقة الرسول ، واتباع سبيل غير المؤمنين ، وهى وعيد للكفار ، واستدل الشافعى بالآية على أن الاجماع حجة لا تجوز مخالفتها ، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة ، لأن الله جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين ، وبين مشاقة الرسول فى الشرط ، وجعل جزاءه الوعيد الشديد فكان اتباعهم واجباً كموالاة الرسول [2] صلى الله عليه وسلم ، ومما يدل على ترابط المسلمين وولائهم لبعضهم ، ما جاء فى الحديث الشريف المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " .[3]

الولاء لأولى الأمر بالطاعة :

ونظراً لكون الإنسان خليفة لله فى أرضه ، وقد تعدد المجتمعات الإنسانية على ظهر الأرض ، كان لابد من تنظيمات لكل مجتمع ، ومع تعدد المجتمعات فإن

---

(١) النساء آية ١١٥ .
(٢) البحر المحيط ج٤ ص٦٦ - ٦٧ .
(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب إخفاء الصدقة ج١ ص٤١٢ .

الجميع أمة واحدة قال تعالى { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } [1] ، وأخرج ابن حجر عن ابن حبان وابن خزيمة وابن مردويه من رواية عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : خطب النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال أما بعد يا أيها الناس فإن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها ، يا أيها الناس الناس رجلان مؤمن تقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله ثم تلا هذه الآية { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... إلى قوله إن الله عليم خبير } ، والمناقب عن الله إنما هى بالتقوى ، بأن يعمل بطاعته ، ويكف عن معصيته [2] ، ومن طاعته طاعة أولياء الأمور ، فى غير معصية الله قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر } [3] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم " اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم شرع الله [4] ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع الإمام فقد أطاعنى ومن عصى الإمام فقد عصانى " [5] ولا يجب طاعة الإمام فى معصية الله لقوله تعالى { ولا يعصينك فى معروف } [6] وقوله صلى الله عليه وسلم : فيما جاء عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحجرات آية ١٣ .
(٢) فتح البارى ج٦ كتاب المناقب ص٦٠٩ .
(٣) النساء آية ٥٩ .
(٤) رياض الصالحين باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية الله ص٢١٨ وصحيح البخارى كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ج٤ ص٢٣٤ .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الجهاد باب طاعة الإمام ج٢ ص٩٥٤ .
(٦) الممتحنة فى آية ١٢ .

قال " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[1] ويرى أبو بكر الجزائرى حرمة الخروج على الإمام ، أو إعلان معصيته ، لما فى ذلك من شق عصا الطاعة على سلطان ، لقوله صلى الله عليه وسلم " من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية " [2] وعلى المسلم أن يدعو للإمام بالصلاح ، والسداد والتوفيق ، والعصمة من الشر ، إذ صلاح الأمة بصلاحه ، وأن يجاهد وراءه ويصلى خلفه ، لقول عبادة بن الصامت رضى الله عنه " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأن لا ننازع الأمر أهله قال إلا أن تروا كفراً بواحاً ما عندكم فيه من الله برهان " [3] ومن الولاء لهم الصدق فى القول لهم ، والعمل الجاد المخلص تحت قيادتهم ، والمحبة لهم ، وتنفيذ أوامرهم والنصح لهم ، فقد جاء عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " إن الله يرضى لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم " [4] فإن استجاب وأدى المسئولية كاملة فإن الله يحبه قال تعالى { فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين } [5] وجاء عن الحسن قال عاد عبيد الله بن زياد معقل بن يسار المزنى فى مرضه الذى مات فيه قال معقل إنى محدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى

(١) رواه ابن ماجه فى باب طاعة الامام ج٢ ص٩٥٦ عن ابن عمر .
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة ج٢ ص١٣٦ .
(٣) أخرجه مسلم فى باب وجوب طاعة الأمراء ج٢ ص١٣٢ وانظر منهاج المسلم ص٧١ - ٧٢ بتصرف .
(٤) جامع العلوم والحكم فى الحديث لابن رجب الحنبلى ص٩٤ محقق .
(٥) الحجرات آية ٩ .

الله عليه وسلم لو علمت أن لى حياة ما حدثتك إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة " [1] وعلى المسلم أن ينصح الإمام كما جاء فى حديث الدين النصيحة وكما جاء فى صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال " بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم " [2] والنصيحة لائمة المسلمين معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم فى رفق ولطف والدعاء لهم [3] وحثهم على التقوى لأنها تحقق سعادة الدنيا والآخرة فإذا أنس الحاكم من رعيته الحب والصدق بذل كل جهده لتوفير سبل العيش والحياة الآمنة وإذا أنس الرعية من قائدهم المحبة والأمن وطيب العيش لهم أحسوا بسعادة الحياة وأحبوا قائدهم وسمعوا وأطاعوا له ونظراً لتعدد أعمال الولاة وكثرتها فهم بحاجة إلى الرعية لأنهم أساس البناء والتعمير وهم العين الساهرة فى العمل من تجارة وزراعة وصناعة وبناء بالإضافة إلى الأطباء والمهندسين والمدرسين للحفاظ على الصحة ونشر العلم والتنظيم فى الحياة ومنهم حراس الأمن الساهرون لحماية الناس ليلاً وتنظيم المرور ومنهم من بات يحرس فى سبيل الله من أجل الجهاد والدفاع عن الحق وعن الوطن قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما " عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله " [4] فالمؤمنون أولياء بعض

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الإيمان باب استحباب الوالى الغاش النار ج١ ص٧١ .
(٢) رياض الصالحين باب فى النصيحة ص٩٥ وأخرجه مسلم فى باب لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ص٤٢ .
(٣) جامع العلوم والحكم ص٩٨ .
(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب فضائل الجهاد فى فضل الحرس فى سبيل الله ج٣ ص٩٦ .

فى العمل والإخلاص والوالى أحد أفراد الشعب تحمل مسئولية كبيرة وأمانة عظيمة يوضح ذلك ما قاله الصديق رضى الله عنه بعد توليه الخلافة فقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإ أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضر بهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عيلكم " [1] ، وقال عمر رضى الله عنه بعد توليه الخلافة " إنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله إننى أعقل الحق من نفسى وأتقدم وأبين لكم أمرى وإنما أنا رجل منكم وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ثم قال أيها الناس : من رأى فىّ اعوجاجاً فليقومه ؟ تقدم إليه رجل وقال : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فرد عمر قائلاً الحمد لله أن كان فى أمة عمر من يقوم اعوجاج عمر بالسيف [2] وقال فى دستوره الذى وضعه لمعاملة العمال " اجعلوا الناس عندكم سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم وإياكم والرشاد والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب [3] وتطلق ولاة الأمور على كل من تولى من أمور المسلمين شيئاً كالقائد العام وقواد الوزارات المتعددة وقواد الجيش والمحافظون ورؤساء المجالس المحلية والمراكز والأقسام والقرى ، كما تشمل رؤساء قطاعات الأعمال والوزارات ، وأولياء الأمور فى البيوت

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص٦٦١ .

(٢) محمد رسول الإسلام والسلام العدد ١٨٠ ص١١٤ اصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) كنز العمال سنن الأقوال والأفعال ج٥ ص٨٠٧ - ٨٠٨ .

والقبائل . والكل مسئول أمام الله عما استرعاه ففى الحديث الشريف المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "[1] ، واختلف فى المراد بأولى الأمر فى الآية السابقة فعن أبى هريرة قال " هم الأمراء أخرجه الطبرى بإسناد صحيح ، وعن ميمون بن مهران نحوه ، وعن جابر بن عبد الله قال هم أهل العلم والخير ، وعن مجاهد وعطاء والحسن وأبى العالية هم العلماء ، واختار الطبرى حملها على العموم وإن نزلت على سبب خاص فقد نزلت الآية فى عبد الله بن قيس بن عدى إذ بعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى سرية ، والأولى فى نظرى حملها على العموم فأولوا الأمر كل مسئول فى موضع المسئولية ، والإسلام أمر بطاعة كل مسئول فى غير معصية الله ، حتى تؤدى الأعمال وتنتظم أمور الحياة ، وصلاح الراعى بصلاح الرعية ، وحينئذ فلابد من توثيق الصلة بين الإمام والمأموم ، وتقريب وجهات النظر والمشورة فى الأمور الهامة ، وعلى الإمام نصح الرعية ، وتقديم المعونات والمساعدات لهم ، وحل مشكلاتهم ، وعليه توجيه وسائل الإعلام المختلفة فى البيان والنصح والإرشاد ، وصدق القول فى نقل الأخبار ، ليوقن الناس بأمرهم وبما يجرى فى داخل أوطانهم ، وهذا يستلزم الولاء للوطن الذى يعيش فيه الإنسان ، ويتربى على أرضه ويتمتع بخيراته ، فى أن يعمل جاهداً من أجل صالح الوطن ،

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل ج٢ ص١٢٥ .

ومقاومة وسائل الإنحراف المختلفة ، والقضاء على كل من تسول له نفسه بالعبث ، في الممتلكات العامة أو الخاصة ، ومقاومة وسائل التخريب والارهاب التى يقوم بها بعض الجهلة وأعوان الأعداء المأجورين من الاستعمار فإذا ما تحقق الولاء ، قضى على وسائل الانحراف فى المجتمعات الإسلامية وكما يكون الولاء فى الأسرة الصغيرة فتستقر يكون كذلك فى البلدة الصغيرة فتهدأ وتستقر ، كما يكون فى الوطن وبين الوطن وغيره من أوطان المسلمين فيتحقق الأمن فى المجتمع الأكبر ، وهو الوطن الإسلامى ، وتسعى الدول جاهدة إلى ذلك ممثلاً فى وزارات الأوقاف فى كل دول المسلمين . وكما يكون الولاء بين المؤمنين بعضهم بعضاً بالتعاون الجاد المثمر ، وبينهم وبين القادة والولاة منهم كذلك نرى أن منهم من أخلصوا لله وأطاعوه فسموا بأوليائه ، وكان لهم الجزاء الأوفى من الله قال تعالى { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم } [1] فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح فى الدنيا والآخرة ، ومنصور فى الدنيا والآخرة قال تعالى {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [2] وقال تعالى { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون } [3] فليعلم الجميع أن دولة الإسلام قامت على أساس الرحمة الشاملة ،

---

(١) يونس الآيات من ٦٢ - ٦٤ .
(٢) غافر آية ٥١ .
(٣) النور آيتا ٥٥ - ٥٦ .

والتشريع المتكامل ، الذى يجد الإنسان فيه نفسه ، ويحس معه بالكرامة ، فالإخاء والمودة والرحمة ، لا تسود فى مجتمع تضيع فيه كرامة الإنسان وتتخبط فيه الأفكار ، وتتناوشها المذاهب المتعددة ، فيضيع الحق وتنشأ الأحقاد ، وتكون الفرقة التى خلقها الاستعمار ، فمزقت شمل الأمة وفرقت شمل المسلمين ولن تعود لهم العزة والمجد ، إلا بتحقق الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فتتآلف القلوب وتتحقق الوحدة ، وتكون لهم السيادة والعزة كما كانت من قبل { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...} [1] فإذا عاد المسلمون لرشدهم ورجعوا إلى ربهم كتب الله لهم العزة قال تعالى {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} .[2]

ثانياً : التحذير من موالاة أعداء الدين :

إن القرآن هو التشريع الإلهى الذى يكفل سعادة البشرية ، ويجمعها على كلمة سواء ، ويوحد بينهما على أسس قويمة ، فهو الرحمة التى تجمع بينهم ، وتحقق السعادة فى كل نواحى حياتهم ، الأسرية ، والإجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، فهو ينظم ملكات الفرد ، وحياة الأسرة ، وطبقات الأمة ، وواجبات الدولة ، وعوامل الاتصال ، والأخوة بين العالمين جميعا ، وهذا التساند فى منهج القرآن هو ميزة الإسلام على سائر التنظيمات الوضعية ، فهو يخاطب الناس جميعاً لا فرق بينهم فى جنس أو لون أو لغة ، لأن الاختلافات فى هذه الأمور من ايات الله فى خلقه ، قال تعالى { ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين } [3] ، ولما كان القرآن هدى ورحمة فقد

---

(١) الرعد آية ١١ .
(٢) المنافقون آية ٨ .
(٣) الروم آية ٢٢ .

جاء ليضع للنفس الإنسانية المنهج الخالد للحياة السعيدة { يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين } [1] ، وبهذا المنهج يضمن استقرار الحياة البشرية ، من أجل تحقيق الخلافة الإنسانية ولما كان الناس مختلفين فى العقائد والمذاهب ومناهج الحياة ، كان لابد من التفريق بينهم فهناك المؤمن بالله ورسوله ، وهناك المنافق الذى يظهر غير ما يبطن وهناك المشرك الملحد ، وهناك الكافر الذى يندرج تحته أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والقرآن أمر بالولاء لله والرسول والمؤمنين ليربط بين الجميع برباط المودة والمحبة والعطف ، وليتحقق التكافل بينهم ، ولما كان المؤمنون هم المنفذون لتعاليم التشريع ، المستفيدون من أحكامها ، كان الأمر بالولاء موجهاً إليهم ، ليكون الشعور متبادلا بينهم من أجل تحقيق حياة ديمقراطية سعيدة ، وليتحقق لهم الأمن والاستقرار ، والتمكين فى الأرض ، ولما كان غير المؤمنين لا يصدقون فى وعودهم ، ولا يقرون بالحقائق ، ويكنون فى صدورهم الغل والحقد للمسلمين ، ويتربصون بهم الدوائر ، أمر الله بأخذ الحذر والحيطة منهم ، قال تعالى { يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً } [2] ، وثبات جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة ووزنها فعلة حذفت لامها وعوض عنها التاء قيل إنها مشتقة من ثبا يثبو أى اجتمع وقيل من ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه كأنك جمعت محاسنه ويجمع على ثبين ومحلها النصب على الحالية أى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية { أو انفروا جميعا } أى مجتمعين كوكبة واحدة {ولا تتخاذلوا فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة} . [3] لأنهم يكنون العداء للإسلام فهم { الذين يتربصون بكم فإن كان لكم

---

(١) يونس آية ٥٧ .

(٢) النساء آية ٧١ .

(٣) تفسير أبى السعود ج١ ص٥٤٧ - ٥٤٨ ط دار الفكر .

فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً } [1] ، والآية وإن كانت فى المنافقين ، فهم خلفاء للكافرين ، والجميع ملة واحدة يطلق عليهم كافرين وهم أعداء الدين ، سواء أكانوا يهوداً أو نصارى أو مشركين أو منافقين وقد نهى الله المسلمين عن الركون إليهم فقال تعالى { ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم } [2] ، فهم يكيدون للإسلام بوسائل متفرقة ، تتمثل فى الفرقة والتنازع ، والصراعات المدمرة التى تعد مدخلاً خطيراً لانهيار الأمة الإسلامية ، سواء أكان هذا التنازع والتفرق فى أمور الدين والسياسة والملك ، كما هو ظاهر فى بعض البلدان الإسلامية فى العصر الحاضر من انهيار شباب الأمة ، أو ضرب الدول بعضها ببعض والوقيعة بينها لتظل متفرقة أو بسبب الفوارق الطبيعية بين البشر ، بحسب الجنس واللون إو بسبب الصراعات القبلية الجاهلية ، وقد يكون بسبب الفرقة والتنازع ، الذى يؤدى إلى الفشل ، وإلى ذهاب قوة المسلمين ، وضياع عزتهم ، ليكونوا لقمة سائغة للأعداء فى أى وقت كان ، وقد حذر الله من الإختلاف والفرقة فى الرأى فقال { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول . الآية } [3] وقال تعالى { وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . الآية } [4] ، وقد يكون التفرق بسبب موالاة الأعداء ، والسير فى ركابهم كما هو ظاهر الآن ، بحجة التبادل الاقتصادى والتجارى ، وتبادل الخبرات والثقافات ،

---

(١) النساء اية ١٤١ .
(٢) فى الآية ٧٣ من آل عمران .
(٣) النساء فى الآية ٥٩ .
(٤) الأنفال فى الآية ٤٦ .

ولكن الإسلام حذر من ذلك وأمر بمقاومة الأعداء فقال { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله } ، [1] وحذر من موالاتهم فى غير موضع من كتابه ، خشية الفتنة فى الدين ، والرجوع إلى الكفر ، فهم يتمنون رد المسلمين إلى الكفر ، وهذا ما أخبر عنه القرآن قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين } [2] ، والآية نزلت فى نفر من الأوس والخزرج ، كانوا جلوساً يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودى فغاظه تآلفهم واجتماعهم ، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم بيوم بعاث ، وينشدهم بعض ما مثل فيه ، وكان الظفر فى ذلك اليوم للأوس ، ففعل فتنازع القوم وتناجزوا ، وقالوا السلام السلام فتوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمد الجاهلية ، وألف بين قلوبكم فعلموا أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم فألقوا السلاح وتعانقوا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] واعلم أن هؤلاء { يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبيناً } [4] ولذلك قال تعالى فى شأنهم {إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون}[5] ، كما أنهم {يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله}[6] قال تعالى {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق } [7] ، فلم يؤمنوا بل استمروا على عنادهم وكفرهم ، يحادون الله

---

(١) الأنفال آية ٣٩ .
(٢) آل عمران آية ١٠٠ .
(٣) تفسير البيضاوى ج١ ص١٧٤ .
(٤) النساء آية ٥٠ .
(٥) النحل آية ١٠٥ .
(٦) فى آية ٥٤ من النساء .
(٧) البقرة آية ١٠٩ .

ورسوله وقد قال تعالى { لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم} [1] الآية والغرض من الآية : أنه لا يجتمع فى قلب واحد إيمان كامل مع مودة الكفار ، وحقه أن يمتنع ، والمنهى عنه الإخلاص القلبى للكافر ، ولو كان أبا أو ابنا أو أخا من العشيرة ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يفضلون على حب الله ورسوله شيئاً ، بل بعضهم قتل أباه وأخاه ، وهؤلاء الذين وجدوا حلاوة الإيمان فى حب الله ورسوله ، لا يوادون أعداء الله ، وأعداء الإسلام والقرآن ، { أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان } وأيدهم بروح من عنده ، وأنار قلوبهم للحق [2] فإذا توجه المؤمن إلى موالاة أعداء الله يكون قد خان الله ورسوله ، وقد حذر الله من الخيانة بقوله { يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون } [3] ، إن أعداء الإسلام لا يؤتمنون على شىء لأنهم رغبوا فى الدنيا وملذاتها وشهواتها واتبعوا أهواءهم قال تعالى {ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ....} [4] ، وقد أمر الله رسوله بالإعراض عنهم فقال له { فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا } [5] ولما كانوا يودون تكفير المسلمين ، ويحرصون على ذلك ، كما أخبر القرآن فقال تعالى { ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله } [6] فلا تتحقق من جهة موالاتهم منفعة ،

---

(١) المجادلة آية ٢٢ .
(٢) التفسير الواضح لحجازى ج٢٨ ص١٥ .
(٣) الأنفال آية ٢٧ .
(٤) البقرة آية ٩٦ .
(٥) النجم آية ٢٩ .
(٦) النساء آية ٨٩ .

أو عزة أو نصرة ، وقد أنكر الله تعالى على من يواليهم ابتغاء منفعة أو ظناً بالتعزز بهم ، فقال تعالى {أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً } [1] ، وذلك يقتضى نفى التعزز بغير الله سبحانه واستحالة الانتفاع به ، وأما عزة الكفار فليس معتدا بها بالنسبة إلى عزة المؤمنين ، لأنه لا يعز إلا من أعزه الله [2] ، والقرآن أخبر عن سلوكيات الأعداء الشاذة ، وما يترتب عليها من إفساد فى الأرض بإهلاك الحرث والنسل ، وانتشار وسائل الإفساد ، من تناول المسكرات والمحرمات والمعاملات الربوية بالاضافة إلى الإباحية المطلقة فى ارتكاب الفواحش والمنكرات { ترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون } [3] والإسلام حرم ذلك بقوله تعالى { قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [4] ، ولقد ظهرت عداوة الأعداء من المشركين وأهل الكتاب ، منذ ظهور الرسالة المحمدية ، وازدادت سوءاً بعد ذلك ، ثم اشتدت ضراوة فى العصر الحاضر ، دون مبالاة أو عدم استحياء قال تعالى { لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . الآية } [5] وإذا كانت عداوتهم ظاهرة ، فكيف يليق بعاقل أن يواليهم أو يتعامل معهم . كيف وهم يتعاونون جميعاً على الإثم والعدوان ، قال تعالى { والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير }[6] وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمجاهدتهم

---

(١) النساء آية ١٣٩ .
(٢) حاشية الجمل ج١ ص٤٣٥ .
(٣) المائدة آية ٦٢ .
(٤) الأعراف آية ٣٣ .
(٥) المائدة آية ٨٢ .
(٦) الأنفال آية ٧٣ .

ومقاومتهم ، قال تعالى { يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير } [1] وإذا كان هؤلاء يَتَّبعُون أهواءهم فى التشريع والسلوك { ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . الآية} [2] فقد حذر الله تعالى منهم بقوله { ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سوء السبيل } [3] ، قال الزمخشرى " وهذا تغليظ من الله وتشديد فى مجانبة المخالف فى الدين واعتزاله " ، والمراد أسلافهم من الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى ، وتنكبوا عن طريق الهدى ، فضلوا وأضلوا ، ولذلك لعنهم الله قال تعالى { لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون } [4] ، أى لعنوا فى الزبور والإنجيل ، قال ابن عباس " لعنوا بكل لسان على عهد موسى فى التوراة ، وعلى عهد عيسى فى الإنجيل ، وعلى عهد داود فى الزبور وعلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ، لأنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه { لبئس ما كانوا يفعلون } وهذا تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم ، فيا حسرتى على المسلمين فى إعراضهم عن التناهى عن المنكر ، كأنه ليس من الإسلام فى شىء ، مع ما يتلونه من كتاب الله تعالى [5] ، ولقد أخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أول ما دخل النقص على بنى

---

(١) التوبة آية ٧٣ وشبيهتها فى التحريم .
(٢) المؤمنون آية ٧١ .
(٣) المائدة آية ٧٧ .
(٤) المائدة آية ٧٨ .
(٥) الكشاف ج١ ص٥٩ بتصرف .

إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه أن يكون ، أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال { لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ... إلى قوله فاسقون } ، ثم قال { والله لتأمرن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه عن الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصراً أو يضرب الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم } [1] إذاً فالإسلام حذر من موالاة أعداء الله بطوائفهم المختلفة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، ولأن هؤلاء { يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون } [2] ، وعلة النهى عن اتخاذهم أعواناً وأولياء وأصدقاء ، لأنه أمر يتعارض مع ما تقضى به شريعة الإسلام الغراء ، لأنهم يحاولون جهدهم الإضرار بالمسلمين والكيد لهم بشتى الوسائل وبكافة الطرق ، فلا يتركوا الجهد فى إفساد مصالح المسلمين ، حتى وإن لم يقاتلوهم فى الظاهر ، فإنهم لا يتركون فرصة تمر من غير إنزال الخديعة بهم ، وإحاطة المكر بصفوفهم كما هو ظاهر من إثارة الفتنة والوقيعة بين الدول الإسلامية فى العصر الحاضر ، وما يحدث من وسائل تخويف وترويع للآمنين ، فى صور الإرهاب المختلفة لدليل على ذلك ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه " لا تستضيئوا بنار المشركين " أى لا تستشيروا المشركين فى شىء من أمور دينكم [3] ، وقال صلى الله عليه وسلم فى حديثه المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه " الرجل على دين خليله فلينظر

---

(١) رياض الصالحين باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص١٠٠ وانظر سنن أبى داود كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ج٤ ص١١٩ - ١٢٠ .

(٢) الصف آية ٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٩٨ .

أحدكم من يخالل " [1] . ولما كانت طوائف الشرك متعددة فلقد ذكرت نماذج لكل طائفة من هذه الطوائف .

أولاً : النهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء :

لما كان اليهود أشد الناس عداوة للمسلمين ، والنصارى كذلك باعتبارهم حلفاء لهم ، وأقرباء منهم فى الملة والشرك كقولهم بالتثليث فى الألوهية حذر الله من موالاتهم ومصاحبتهم خشية الفتنة فى الدين كما سبق ، ولأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، ولذلك جاء فى الحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال " لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه " [2] ، لأنهم يمكرون بالمسلمين مع أن الله جعل العزة لهم ، قال تعالى { ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً } [3] ، قال على وابن عباس رضى الله عنهما إن المراد به يوم القيامة ، روى أن رجلا سأل على بن أبى طالب عن هذه الآية كيف هذا وهم يقتلوننا ، فقال : ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلاً ، والمراد بالسبيل الحجة ، وقيل معناه إن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بأن تمحو دولة المؤمنين بالكلية ، وقيل معناه : إن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بالشرع فإن شريعة الإسلام ظاهرة [4] ، وقد روى ابن ماجه عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال زويت لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض [5] ، وقيل

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب من يؤمر أن يجالس ج٤ ص٢٦ .
(٢) رياض الصالحن باب تحريم ابتداء الكافر بالسلام ص٣٢٦ وأخرجه مسلم فى كتاب السلام باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ج٢ ص٢٦٨ .
(٣) النساء آية ١٤١ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص٤٣٧ تلخيصا .
(٥) يعنى الذهب والفضة .

إن ملكك إلى حيث زوى لك ، وإنى سألت الله ثلاثاً أن لا يسلط على أمتى جوعاً فيهلكهم به عامة ، وأن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، وأنه قيل لى إذا قضيت قضاءاً فلا مرد له ، وإنى لن أسلط على أمتك جوعاً فيهلكهم فيه ، ولن أجمع عليهم من بين أقطارها حتى يفنى بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا ، فإذا وضع السيف فى أمتى فلن يرفع عنهم إلى يوم القيامة ، وإن مما أتخوف على أمتى أئمة مضلين ، وستعبد قبائل من أمتى الأوثان ، وستلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وإن بين يدى الساعة دجالين كذابين قريباً من ثلاثين يزعم أنه نبى ، ولن تزال طائفة من أمتى على الحق منصورين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله " [1] ولما كان أهل الكتاب وخاصة اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم المفضلون حسب زعمهم على غيرهم لكنهم بعصيانهم وتمردهم طردهم الله من رحمته وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، يوضح ذلك قوله تعالى { ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً } [2] ، فلذلك حذر الله المؤمنين منهم بقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون } [3] ، والمعنى " يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا يليق بكم مع هذا الوصف أن تتخذوا من غير المسلمين أصدقاء تؤثرونهم بالمودة ، وتطلعونهم على

---

(١) سنن ابن ماجه باب ما يكون من الفتن ج٢ ص٢٤٢ .
(٢) النساء آيتا ٥١ ، ٥٢ .
(٣) آل عمران آية ١١٨ .

دخائلكم وأسراركم وكيف يكون منكم مودة لهم وهم لا يقصرون فى إيصال الفساد والخبال بكم وينفقون جهدهم كله فى توفير الضرر لكم ، ويتمنون لكم كل عنت ومشقة ، فإن لم يستطيعوا حربكم وإيذاءكم فهم يريدون لكم كل فساد وألم ، ويظهرون لكم البغضاء والحسد من فلتات لسانهم وما يكنونه بداخلهم من الحسد أكثر ، والله سبحانه قد بين لكم الآيات والعبر التى ترشدكم إلى الخير فاتبعوها إن كنتم تعقلون [1] ، وجاء التحذير صراحة من موالاة الكفار من اليهود والنصارى فقال تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين } [2] ، والحكم فى الآية عام لجميع المؤمنين ، والظاهر أنه خطاب لهم على الحقيقة ، وقيل خطاب للمنافقين والمراد أن كل واحدة من الطائفتين توالى الأخرى وتعاضدها وتناصرها على عداوة المسلمين ، وإن كانوا فى ذات بينهم متعادين متضادين ، فالمعنى أن بعض اليهود أولياء بعض وبعض النصارى أولياء بعض ، والمراد بالبعض إحدى طائفتى اليهود والنصارى ، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع بأنهم فى غاية من العداوة والشقاق [3] ، كما أخبر القرآن عنهم { وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء [4] ، وقوله { بعضهم أولياء بعض } مشعر بعلة الولاية وهو اجتماعهم فى الكفر والممالأة على المؤمنين والظاهر أن الضمير فى بعضهم يعود على اليهود والنصارى فإن كلاً منهم يوالى بنى جنسه وجمعهم فى الضمير على سبيل الإجمال { ومن يتولهم منكم فإنه منهم } قال ابن

---

(١) التفسير الواضح ج٤ ص١٨ بتصرف .
(٢) المائدة آية ٥١ .
(٣) فتح القدير للشوكانى ج٢ ص٥٠ .
(٤) البقرة آية ١١٣ .

عباس فإنه منهم فى حكم الكفر " أى ومن يتولهم فى الدين ، وقال غيره ومن يتولهم فى الدنيا فإنه منهم فى الآخرة ، أى ومن يتولاهم بأفعاله دون معتقدهم فهو منهم فى المقت والمذمة ، ومن يتولاهم فى المعتقد فهو منهم فى الكفر [1] ، وقال النسفى " لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين فكلهم أعداء للمؤمنين { ومن يتولهم منكم } فيه تغليظ من الله ، وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين [2] ، وقال ابن عباس إن الآية نزلت فى رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث وكانا قد أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله الآية ، وقال السيوطى أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن عبادة بن الصامت قال لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وكان أحد بنى عوف بن الخزرج ،وله من حلفهم مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى ، فحالفهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت القصة فى المائدة [3] ، وفى الآية تهديد وتشديد على من يتخذون صداقات ويربطون صلات باليهود والنصارى أعداء الدين { إن الله لا يهدى القوم الظالمين } أنفسهم بموالاة الكفار أيا كان السبب [4] ، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين * وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوًا

---

(١) البحر المحيط ج٤ ص٢٩١ - ٢٩٢ .
(٢) تفسير النسفى ج١ ص٢٨٧ .
(٣) أسباب النزول للسيوطى ص١٠٧ .
(٤) التفسير الواضح ج٦ ص٦٥ .

ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون } [1] ، قال الشيخ سليمان الجمل { نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوها من أسباب المصادقة والمعاشرة ، وكما في قوله { لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة } وعن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية من دون المؤمنين أي لا يوالي المؤمنين الكافرين ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً مع المؤمنين ، وإنما الجائز لهم قصر المحبة والموالاة على المؤمنين بأن يوال بعضهم بعضاً [2] ، قال السيوطي : روى أبو الشيخ وابن حبان عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحرث قد أظهرا الإسلام ونافقا ، وكان رجل من المسلمين يوادهما فأنزل الله الآية [3] ، قال الشيخ النسفي " واتخاذهم دينكم هزوا ولعبا لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء ، بل يقابل بالبغضاء والمنابذة { واتقوا الله } في موالاة الكفار { إن كنتم مؤمنين } حقاً لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين [4] ، وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزوا ولعبا إيماء إلى العلة وتنبيهاً على أن من هذا شأنه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء وأن ذكر اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما : أي لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ، ففي التعبير زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة وإن لم تكن موالاة في الحقيقة ، ووضع المظهر موضع ضميرهم في ختم الآية تنبيهاً على أن توليتهم ظلم لكونه وَضْعٌ للشيء في غير موضعه[5] ، قال ابن كثير هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من

---

(١) المائدة آيتا ٥٧ ، ٥٨

(٢) حاشية الجمل ج١ ص٢٥٨ .

(٣) أسباب النزول للسيوطي ص١٠٨ والواحدي ص١١٤ .

(٤) تفسير النسفي ج١ ص٢٩٠ .

(٥) تفسير أبي السعود ج٢ ص٥٣ - ٥٤ بتصرف .

الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون ، وهى شعائر الإسلام المحكمة المطهرة المشتملة على خير دنيوى وأخروى ، يتخذونها هزوا ولعبا فيعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد ، والمراد بالكفار فى الآية المشركون ، أى واتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً ، ولذلك ختم الآية بقوله { ذلك بأنهم قوم لا يعقلون } معانى عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات اتباع الشيطان [1] لذلك جاء النهى الشديد وتكرر فى غير موطن قال تعالى { يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور } [2] وجاء فى آية أخرى بلفظ { ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون } [3] ، أخرج ابن المنذر من طريق محمد بن اسحاق عن عكرمة وأبو سعيد عن ابن عباس قال كان عبد الله بن عمرو وزيد بن الحرث يؤادان رجلا من يهود فأنزل الله الآية [4] وقال الواحدى [5] نزلت فى ناس من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين وتواصلوا بهم ليصيبوا بذلك من ثمارهم ، فنهاهم الله عن ذلك ، مخاطباً إياهم بأسلوب المدح ، ومحذراً لهم من موالاة اليهود ، أى لا تتولوا قوما غضب الله عليهم من اليهود { قد يئسوا من الآخرة} أى من ثواب الله لهم فى الآخرة {كما يئس الكفار من أصحاب القبور} أى كما يئس الكفار الأحياء من موتاهم الذين فى القبور أن يرجعوا إليهم [6] ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٨٢ بتلخيص وتصرف .
(٢) الممتحنة آية ١٣ .
(٣) المجادلة آية ١٤ .
(٤) أسباب النزول للسيوطى ص٢٧٢ .
(٥) أسباب النزول للواحدى ص٢٤٢ .
(٦) مختصر تفسير الطبرى على مصحف الشروق المفسر ص٦٣٢ .

وقال ابن العربى بلغ عمر بن الخطاب أن أبا موسى الأشعرى اتخذ باليمن كاتباً ذمياً فكتب إليه الآية {لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء} وأمره أن يعزله ، وذلك لا ينبغى لأحد من المسلمين أن يتخذ من أهل الذمة ولياً ، لنهى الله عن ذلك ، لأنهم لا يخلصون النصيحة ، ولا يؤدون الأمانة بعضهم أولياء بعض [1] ، وهذا النهى فى الآيات السابقة يعم كل من حصل منه استهزاء بدين المسلمين ، من الكفار والمشركين وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام ، لاشتراكهم فى العلة على محاربة الإسلام وآله ، والآيات كلها تضمنت المنع من التأييد والآستنصار بالمشركين من أهل الكتاب ، روى جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج إلى أحد جاءه قوم من اليهود فقالوا نسير معك ، فقال صلى الله عليه وسلم " إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين " .[2]

ولعل يكون فيما سبق عظة وعبرة لكل من يرجع إليهم ويتعامل معهم ، لأن دأبهم الكيد للإسلام وآله فيكف يستعان بهم على الشعوب المؤمنة ، أو يعتمد عليهم فى العمل وبعض مصالح المسلمين أن هذا حكم الجاهلية التى نهى الله عنه بقوله {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون } [3] والاستفهام إنكار على اليهود حيث هم أهل الكتاب يعرفون أن التحليل والتحريم من الله ومع ذلك يعرضون عن حكم الله ويختارون عليه حكم الجاهلية وهو بمجرد الهوى من مراعاة الأشرف عندهم ، وترجيح الفاضل عندهم فى الدنيا على المفضول وفى هذا أشد النعى عليهم ، حيث تركوا الحكم الإلهى بحكم الهوى والجهل ، وقال الحسن

---

(١) تفسير ابن عربى مجلد ٢ ص٦٣٤ ط دار الفكر .
(٢) تفسير القرطبى ج٤ ص٢٢١ ط دار الريان .
(٣) المائدة آية ٥٠ .

هو عام فى كل من يبتغى غير حكم الله [1] ، ألا { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم } [2] كيف وقد تبرأ خليل الرحمن ومن اتبعه من أبيه وقومه ، { إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده } [3] ، ونظراً لما هناك من صلة بين أهل الكتاب والمشركين ، فقد نهى الله المسلمين نهياً قاطعاً عن مودة هؤلاء قال تعالى { إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهُمْ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون } .[4]

ثانياً : النهى عن اتخاذ المنافقين والمشركين أولياء :

نظراً لتمالأ هؤلاء الأعداء جميعاً سواء أكانوا ظاهرين فى العداوة أو ممن يخفونها ليكون الضرر أكثر ، وخاصة أن هناك من ضعفاء الإيمان الكثير ممن يبيعون دينهم بدنياهم ، وأوطانهم بثمن بخس ، فإن الإسلام حذر من هؤلاء قال تعالى فى شأن المنافقين { ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون } [5] ، قال السيوطى أخرج بن أبى حاتم عن السدى قال بلغنا أنها نزلت فى عبد الله بن نبتل [6] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجالسه ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، والمعنى انظر يا من يتأتى منك النظر متعجباً إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم وهم اليهود وقد تولاهم

---

(١) تفسير أبى حيان ج٤ ص٢٨٧ .
(٢) النور آية ٦٣ .
(٣) الممتحنة آية ٤ .
(٤) الممتحنة آية ٩ .
(٥) المجادلة آية ١٤ .
(٦) أسباب النزول للسيوطى ص٢٦٦ .

المنافقون يسرون إليهم بالمودة ويحلفون لهم أنهم لمعهم مع أنهم ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء ويعلم الله أن المنافقين لكاذبون ، إذ كيف يتولون قوما غضب الله عليهم حالة كونهم ما هم منكم ولا منهم ، ومن تابع قوماً فهو منهم ، ومن هنا حذر الله المؤمنين من موالاة المنافقين لاتقاء شرهم وضررهم الأكثر ، لكونهم ليسوا ظاهرين ، مع أن منهم من هو حلو الكلام سليط اللسان ، قال تعالى { ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشْهِدُ اللَّهَ على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويُهْلِكَ الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزةُ بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد } [1] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا أوعد أخلف } [2] ، والآية السابقة نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى ، وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الإسلام ، وقيل فى المنافقين كلهم ، والمعنى فيها " ومن الناس من يروقك ويعظم فى نفسك فى أمور الدنيا وأسباب المعاش من إدعاء المحبة ، وإظهار الإيمان ويحلف ويستشهد الله على أن ما فى قلبه موافق لكلامه ، { وهو ألد الخصام } شديد العداوة والجدال للمسلمين ، والخصام المخاصمة ، أو بمعنى أشد الخصوم خصومة { وإذا تولى } أى أدبر وانصرف عنك ، وقيل إذا غلب وصار والياً سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل كما فعل الأخنس بثقيف إذ بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم ، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف ، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطر ويهلك الحرث والنسل ، { والله لا يحب

---

(١) البقرة آيات ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب خصال المنافق ج١ ص٤٣ .

الفساد } لا يرتضيه ، { وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم } أى حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذى يؤمر باتقائه { فحسبه جهنم } أى كفته جزاء وعذابا وبئس هذا الفراش ، وجهنم علم لدار العقاب .[1] وقد كشفت سورة التوبة أسرارهم ، وأوضحت طباعهم من نقض عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن استهزائهم بالمسلمين ، والسخرية منهم وقعودهم عن الاشتراك فى الجهاد ، وتخلفهم عن الغزو ، وإذا كانوا لا يؤتمنون على سرٍّ ، ولا يصدُقون فى وعود ولا يشاركون فى جهاد ، أو نصرة الدين ، فكيف يليق بالمسلم أن يتخذ منهم وليا أو نصيراً ، وما أكثر ظاهرة النفاق فى العصر الحاضر ، من أجل الوصول إلى مأرب أو غاية شخصية أو جماعية ، ولو على حساب الدين أو العمل أو أشخاص آخرين ، يقول الله فى شأنهم { لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمةً وأولئك هم المعتدون }[2] ، وأخبر تعالى عن منهجهم فى الحياة ، فقال : { إتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون }[3] ، ونظراً لشدة خطرهم على الإسلام وآله ذكر الله فى كتابه سورة باسمهم لتكشف عن أسرارهم ، وتوقف المسلمين على صفاتهم ليحذروهم ، وجعل الله جزاءهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار ، وحذر المسلمين من شرهم ، فقال مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم { هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون }[4] ، دعاء عليهم وقال تعالى { ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ }[5] لذلك حذر الله منهم فقال تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا

---

(١) تفسير البيضاوى ج١ ص١١١ بتصرف .
(٢) التوبة آية ١٠ .
(٣) المنافقون آية ٢ .
(٤) المنافقون آية ٤ .
(٥) آ عمران آية ١١٩ .

بطانة من دونكم لا يألونكُم خبالاً ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدورهم أكبر } [1] ، قال ابن كثير " يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ بطانة ، يطلعوا على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا أى يسعون فى مخالفتهم ، وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المسلمين ويحرجهم ويشق عليهم ، وقوله {لا تتخذوا بطانة من دونكم} أى من غيرهم من أهل الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل سرائره { قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدورهم أكبر } أى قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما اشتملت عليه صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى ، وأنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم فى الباطن بخلاف ذلك [2] ، ولقد وصفهم الله بالفسق ، فقال تعالى { والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون } [3] ، قال ابن كثير " يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون " يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " كان هؤلاء يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف { ويقبضون أيديهم } عن الإنفاق فى سبيل الله { نسوا الله } أى نسوا ذكر الله { فنسيهم } أى عاملهم معاملة من

---

(١) آل عمران آية ١١٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٩٨ - ٣٩٩ بتصرف .
(٣) التوبة آية ٦٧ .

نسيهم ، لأن الله لا ينسى شيئاً ، والمعنى لا يعبأ بهم أى لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، كقوله تعالى { وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا } [1] ثم وصفهم بالفسق فقال { إن المنافقين هم الفاسقون } أى الخارجون عن طريق الحق الداخلون فى طريق الضلالة [2] ، وإذا كانوا كذلك فلا يؤتمنون على شىء أو يتوقع منهم نصرة أو معونة ، { وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدوداً } [3] ، ونظراً لصلتهم الوثيقة بالكفار وتحالفهم معهم ضد المسلمين ، فإن الله بين جزاءهم المترتب على هذا السلوك السىء ، قال تعالى { بَشِّرِ المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينهم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً * إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مُذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً } [4] وإذا كان حكم الله فيهم كذلك ، فكيف يليق بالمسلم أن يعتمد عليهم أو يستنصر بهم ، أو يعتمد عليهم فى شىء أو

---

(١) الحاشية آية ٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٨ بتصرف .
(٣) النساء آية ٦١ .
(٤) النساء الآيات ١٣٨ - ١٤٣ .

يواليهم ، وكيف والمنافق يداهن ويخادع على حساب الدين ، ويتربص بالمسلمين وقد كره بعض العلماء توكيله فى الشراء والبيع ، وفى دفع المال إليه مضاربة ولما كان هذا الوصف من أوصاف المنافقين ، نهى الله المؤمنين عن هذا الوصف وقال القفال : هذا نهى للمؤمنين عن موالاة المنافقين [1] ، وأقول لكل من يتواطأ مع غير المسلمين أو يواليهم ويتعامل معهم ، عليك الرجوع إلى الحق فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل { ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِمْ له أجراً } [2] ، وفى الآيات التى أوضحت صفات المنافقين السابقة {الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ... الخ } قال أبو حيان " أى اليهود والنصارى ومشركى العرب ، أولياء : أى أنصار ومعينين يوالونهم على الرسول والمؤمنين ، ونص من صفات المنافقين على أشدها ضرراً على المنافقين ، وهى موالاتهم الكفار وإطراحهم المؤمنين ونبه على فساد ذلك ليدعه ، من عسى أن يقع فيه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة ، { أيبتغون عندهم العزة } أى الغلبة والشدة والمنعة بموالاتهم وقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد ، وفى هذا الاستفهام : تنبيه على أنه لا عزة لهم ، فكيف تبتغى فيهم على خبث معتقدهم طلب العزة والاستكبار بهم ، { فإن العزة لله جميعاً } أى لأوليائه الذين كتب لهم العزة والغلبة على اليهود وغيرهم [3] لأن الله هو صاحب التصرف ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، قال تعالى { من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور } [4] وجاء عقب آيات سورة النساء السابقة { يأيها الذين آمنوا

(١) البحر المحيط ج٤ ص١١١ - ١١٢ .
(٢) الطلاق آية ٥ .
(٣) البحر المحيط ج٤ ص١٠١ .
(٤) فاطر آية ١٠ .

لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً } [1] ، فكان هذا الوصف من أوصاف المنافقين ، وتقدم ذمهم بذلك ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الوصف ، كان للأنصار فى بنى قريظة رضاع وحلف ومودة ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من نتولى فقال المهاجرون ، والمعنى قد بينت لكم أخلاق هؤلاء المنافقين ، فلا تتخذوا منهم أولياء ، وقال ابن عطية " خطابه للمؤمنين يدخل فيه بحكم الظاهر المنافقون المظهرون للإيمان ، وفى اللفظ رفق بهم ، والمراد بالسلطان هنا حجة ظاهرة واضحة بموالاتكم الكافرين أو المنافقين [2] ، فالنداء فيما مضى لا يقال للمؤمنين المخلصين ، وإنما يختص بالمنافقين ، والله تعالي يقول فى شأنهم { ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون } [3] وهذه تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

التحذير من موالاة الكفار :

لما كان الكفر كله ملة واحدة فى الضلال والابتعاد عن منهج الحق ، كان يكفى الحديث عنهم جملة ، ولكنى أردت التفصيل ، ليكون الجميع على بينة من أمر هؤلاء جميعاً ، فيحذروهم ، وإذا كان حديث القرآن عن سلفهم فإن الخلف منهم

---

(١) النساء آية ١٤٤ .
(٢) البحر المحيط ج٤ ص١١١ - ١١٢ بتلخيص وتصرف
(٣) البقرة الآيات من ٨ - ١٢ وما بعدها .

أسوأ من السلف فى العداوة ، فهم جميعا { يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون } [1] ، وهم يحادون الله ورسوله ، والله يقول { لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو أخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه } [2] الآية ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب قال نزلت هذه الآية فى أبى عبيدة بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ، وأخرج ابن المنذر عن جريح قال حدثت أن أبا قحافة سب النبى صلى الله عليه وسلم ، فصكه أبو بكره صكة ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ فقال : والله لو كان السيف قريباً منى لضربته به ، فنزلت الآية [3] ، والحكم عام فالعبرة بعموم اللفظ ، فالنهى عن مودة هؤلاء من حيث الموالاة ، ولو كانوا آباءً أو أبناءً أو إخواناً أو من العشيرة والقبيلة لأنهم يحادون الله ورسوله بكفرهم ، والإسلام حذرنا من موالاتهم حينئذ قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين } [4] ، إن الله لما أمر بالتبرى من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه ، فذكر الله تعالى أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه فى الدين واجبة ، فالمؤمن لا يوالى الكافر

---

(١) التوبة آية ٣٢ .
(٢) المجادلة آية ٢٢ .
(٣) أسباب النزول للسيوطى ص٢٦٦ ، وللواحدى ص٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٤) التوبة آيتا ٢٣ ، ٢٤ .

وإن كان أباه أو أخاه أو إبنه ، { إن استحبوا الكفر على الإيمان } يعنى اختاروا الكفر وأقاموا عليه ، وتركوا الإيمان بالله ورسوله ، ومن يختار المقام مع الكفرة والمشركين على الهجرة والجهاد ، فقد ظلم نفسه ، بمخالفة أمر الله ، ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ، إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت ديارنا وقطعت أرحامنا فأنزل الله تعالى قل يا محمد لهؤلاء هذه المقالة { إن كان آباؤكم وأبناؤكم ... الآية } وفى ختم الآية : تهديد لهم لكونهم آثروا الدنيا على الآخرة ، وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين مهمات الدنيا ، وجب ترجيح الدين على الدنيا ليبقى الدين سليماً [1] ، من هنا حذر الإسلام من موالاة المشركين ، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل } [2] ، ومعنى الآية الكريمة " يا من اتصفتم بالإيمان لا يليق بكم لأجل هذا الوصف : أن تتخذوا عدو الله وعدوكم أولياء وأصدقاء ولو فى الظاهر ، فالله ينهانا عن موالاتهم والإسرار إليهم بأخبارنا ، ولو فى الظاهر لا عن عقيدة وإيمان ، حالة كونكم تلقون إليهم بالمودة وتسرون إليهم بها والحال أنهم كفروا بما جاءكم من الحق والقرآن ، فبينكم وبينهم عداوة شديدة ، فكيف تلتقون بهم ، ففى الآية حدد الله علاقتنا بالكفار والمشركين ، حيث نهانا عن مودتهم وإعلامهم بأخبار الحروب ، والأخبار التى تضر الأمة الإسلامية ، ولكن هل

---

(١) حاشية الجمل ج٢ ص٢٧٢ بتلخيص وتصرف .
(٢) الممتحنة آية ١ وما بعدها .

نحن منهيون عن البر بهم مادياً والقسط بهم والعدل معهم ، أجاب الله عن ذلك جواباً شافياً فقال ما معناه " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم ، أن تبروهم بالخير وتقسطوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بالحسنى ما داموا لم يسيئوا لكم فى الدنيا " { إن الله يحب المقسطين } " إنما ينهاكم الله عن مودة ومحبة من قاتلوكم فى الدين وجاهدوكم عليه بكل نفس ونفيس ، ينهاكم الله عن مودتهم ومحبتهم ، { ومن يتولاهم } ويتخذهم أنصار { فأولئك هم الظالمون } [1] ، ولقد ابتدأت سورة الممتحنة بالنهى عن موالاة الكفار ، وختمت بمثل ذلك تأكيداً لعدم موالاتهم وتنفيراً للمسلمين عنها وسبب نزول آية الممتحنة السابقة ، ما أخرجه الشيخان عن على رضى الله عنه قال " بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ [2] فإن بها ظعينة ، ومعها كتاب فخذوه منها فأتونى به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا أخرجى الكتاب فقالت ما معى من كتاب ؟ فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ؟ فأخرجته من عكاصها [3] ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو من حاطب بن أبى بلتعه إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال لا تعجل على يا رسول الله ، إنى كنت ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من نسب فيهم ، أن أتخذ يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت

---

(١) التفسير الواضح مجلد ٣ ج٢٨ ص٣٣ بتلخيص وتصرف .
(٢) روضة خاخ مكان على مشارف مكة بين جبلين .
(٣) عكاصها أى ضفيرة شعرها

ذلك كفراً ولا إرتداداً عن دينى ولا رضاً بالكفر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنه قد صدقكم ، فقال عمر دعنى يا رسول الله أضرب عنقه ، فقال إنه قد شهد بدراً " وما يدريك لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ونزلت الآية [1] ومما سبق نرى أن موالاة الكفار والمشركين منهى عنها ، فى غير موطن من كتاب الله تعالى ومن صريح ما جاء فى ذلك قوله تعالى { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير } [2] ، قال الواحدى " قال جبير عن الضحاك عن ابن عباس : نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى وكان بدرياً نقيباً وكان له حلفاء من اليهود ، فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، قال عبادة يا نبى الله : إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فاستظهر بهم على العدو فأنزل الله الآية [3] ، وقال السيوطى : أخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمر حليف كعب ابن الأشرف وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن أبى عمرو وعبد الله بن جبير وسعد بن حثمة لأولئك النفر اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبوا فأنزل الله فيهم { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ... الخ }[4] والآية الكريمة تحذر من موالاة الكافرين إلا فى حال الضرورة ،

---

(١) فتح البارى ج٨ كتاب التفسير باب لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ص٥٠٢ وانظر أسباب النزول للسيوطى والواحدى .

(٢) آل عمران آية ٢٨ .

(٣) أسباب النزول للواحدى ص٥٧ .

(٤) أسباب النزول للسيوطى ص٥٤ - ٥٥ .

وهو حال اتقاء شرهم وتجنب ضررهم ، أو الخوف منهم ، فتجوز موالاتهم بشرط أن يقتصر ذلك على الظاهر ، وإضمار الكراهية لهم والبغض لهم ، ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد الذى يدل على عظم الذنب لكل مخالف أوامر الله ويوالى أعداءه ، فمن { يفعل ذلك } فهو ليس من دين الله أو شرعه فى شىء وفى ختم الآية "بإظهار الاسم الجليل مكان الإضمار لتربية المهابة والروعة فى النفس " ولقد روى البخارى عن أبى الدرداء " إنا لنبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم " [1] وجاء عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أنه استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال : ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة ، فلما دخل ألان له الكلام ، فقلت له يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له فى القول : فقال " يا عائشة : إن شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه " [2] وقال الشيخ سليمان الجمل " إن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين ، أو يكون المؤمن فى قوم كفار فيداهنهم بلسانه مطمئناً قلبه بالإيمان دفاعاً عن نفسه ، من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المحرمات ، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين ، والتقية رخصة تجوز لدفع الضرر عن النفس [3] ، وقد حدث ذلك لعمار ابن ياسر فأنزل الله قوله { إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان } [4] ، ولذلك قال له النبى صلى الله عليه وسلم " إن عادوا فعد أى إلى القول باللسان تقية من إيذائهم ، ومما سبق يتبين أن مداراة أهل الشر والفجور جائزة ، ولا يدخل فى هذا الموالاة المحرمة ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يدارى الفساق والفجار ،

(١) صحيح البخارى مجلد ٢ ج٤ ص٦٩ بحاشية السندى .
(٢) رواه البخارى مجلد ٢ ج٤ ص٦٩ - ٧٠ بحاشية السندى .
(٣) حاشية الجمل ج١ ص٢٥٨ ط عيسى الحلبى .
(٤) النحل آية ١٠٦ .

وقال بعض العلماء إن كانت فيما لا يؤدى إلى ضرر الغير فذلك جائز وإن كانت تؤدى إلى ضرر الغير كالقتل والسرقة وشهادة الزور فلا تجوز البتة ، فالتقية عند الخوف على المال أو النفس أو العرض أو التعرض للأذى والشرور جائزة ، وأن الاكراه يبيح للإنسان التلفظ بكلمة الكفر بشرط أن يبقى القلب مطمئناً بالإيمان[1] ، ومما سبق نرى أن الإسلام حرم موالاة الكفار والمشركين ، قال تعالى { يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين } [2] وجاء عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " [3] ، وما أصاب المسلمين اليوم من ذل وعدم أمن أو استقرار إنما هو بسبب حب الدنيا وكراهية الموت ، والاعتماد على غير المسلمين فى أغلب الأمور ووسائل الاقتصاد كما هو ظاهر اليوم فى دول المسلمين ، مع أن الله منح دول الإسلام من ضروب الرزق ما لا يوجد عند غيرهم ، مما أدى إلى طمع الدول غير الإسلامية فيهم ، ومحاولة السيطرة على بلاد المسلمين ، وجعلها سوقاً لترويج بضائعهم ومنتجاتهم ، بل ويحاولون سلب مواردهم بأبخس الأثمان ، وينظرون إليهم بسخرية واستهزاء ويقولون إنهم العالم الثالث ، ولم يعلموا أن الله كرم الإسلام وأله ، وضمن لهم حياة حرة كريمة ، قال تعالى { الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون } [4]

وهل تجوز تولية الكافر واستعماله فى شئون المسلمين :

وخاصة فى هذا العصر الذى اختلط فيه المسلمون بغيرهم ، وظهرت وسائل حديثة لم يكن عند المسلمين معرفة بها ؟ استدل بعض العلماء من الآية السابقة أنه

(١) روائع البيان فى تفسير آيات الاحكام للصابونى ج١ ص٤٠٤ بتصرف .
(٢) الأحزاب آية ١ .
(٣) رواه أبو داود فى كتاب الجهاد باب كراهية ترك الغزو ج١ ص١٠
(٤) الأنعام آية ٨٢ .

لا تجوز تولية الكافر شيئاً من أمور المسلمين ، ولا جعلهم عمالاً ولا خدماً ، كما لا يجوز تعظيمهم وتوقيرهم فى المجلس والقيام عند قدومهم ، فإن دلالته على التعظيم واضحة ، وقد أمرنا باحتقارهم ، قال تعالى { يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء }[1] ، قال ابن العربى وقد نهى عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعرى بذمى كان قد استكتبه باليمن ، وأمره أن يعزله ، وفى هذه الآية ونظائرها دلالة على أن لا ولاية للكافر على المسلم فى شىء ، وأنه إذا كان للكافر ابن صغير مسلم فلا ولاية له عليه فى تصرف ولا تزويج ولا غيره ، لأن ذلك من الولاية والنصرة والمعونة ، قال تعالى {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً} [2] ، وجوز بعض العلماء توليتهم فى بعض الأعمال إن أمن جانبهم واطمأن المسلمون إليهم ، ولم يحدث منهم ما يسىء إلى العمل ، أو إلى المسلمين مع المراقبة التامة لهم ، وخاصة فى الأعمال التى لم يكن عند المسلمين معرفة بها ، فإذا عرفوها استغنوا عن غير المسلمين حينئذ ، وخاصة أن الإسلام يأمر بأداء العمل واتقانه والجد فى أدائه لينتفع به المسلمون ، وإنى أرى عدم الاعتماد عليهم فى قضاء أعمالنا وعلينا أن ندرب العلماء والعمال والمهندسين على كل ما يستجد من وسائل حديثة حتى يكون المسلمون فى غنى عنهم ، لنأمن شرهم وخطرهم ، لأنهم لا يؤتمنون على شىء قال تعالى { وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون } [3] ، وقال تعالى { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم } .[4]

---

(١) التوبة آية ٢٨ .
(٢) سورة النساء آية ١٤١ وانظر روائع البيان للصابونى ج١ ص٤٠٤ .
(٣) التوبة اية ١٢ .
(٤) الأنفال آية ٦٠ .

وهل يجوز الاستعانة بالكفار فى الحرب ؟

اختلف العلماء فى جواز الاستعانة بالكفار فى الحرب على مذهبين : قال المالكية لا يجوز الاستعانة بالكفار فى الغزو أخذاً بظاهر الآية الواردة ، واستدلوا بما ورد فى قصة عبادة بن الصامت فى سبب النزول وبما رواه مسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئت لأتبعك وأصيب معك ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤمن بالله ورسوله ، قال لا ، قال فارجع فلن أستعين بمشرك ؟ ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة ، قال فارجع فلن أستعين بمشرك ؟ قال ثم رجع ، فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة تؤمن بالله ورسوله قال نعم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق " [1] ، ومذهب الجمهور من الشافعية والحنفية والحنابلة قالوا يجوز الاستعانة بالكفار فى الحرب بشرطين : أولاً الحاجة إليهم ، وثانياً فى الوثوق من جهتهم واستدلوا بفعل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد استعان بيهود بنى قينقاع وقسم لهم ، واستعان بصفوان بن أمية فى هوازن ، واستعان بعبد الله بن أريقط فى الهجرة فدل ذلك على الجواز ، وقالوا فى الرد على المالكية إنها منسوخة بفعله صلى الله عليه وسلم وعمله ، ويحمل قول المالكية على عدم الحاجة أو عدم الوثوق وبذلك يجمع بين الرأيين [2] فى هذا الحكم .

---

(١) صحيح مسلم ج٢ كتاب الجهاد - باب كراهية الاستعانة فى الغزو بكافر ص١٢٠ .
(٢) روائع البيان للصابونى ج١ ص٤٠٢ بتلخيص وتصرف .

وهل يجوز التصدق على أهل الذمة ؟

إن النهى عن موالاة غير المسلمين ومعاملتهم معاملة كريمة ، إنما يكون مختصاً بمن نصب العداء للمسلمين ، وظهر منهم علامات الغدر ، وآيات الحقد من قتل للأبرياء وتشريد لهم من أوطانهم ، ومناصرة الأعداء عليهم كما قال تعالى {إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون } [1] بالنهى عن اتخاذ الكفار أولياء أى ومن يتخذ الكفار والمشركين ومن على شاكلتهم ممن قالوا بالتثليث فى الألوهية ، وممن خالفوا المسلمين فى العقيدة ، وأخرجوهم من ديارهم كما حدث فى فلسطين ولبنان وغيرهما ، وألبوا عليهم غيرهم من يتخذ منهم أولياء فقد ظلم نفسه ، وأوقعها فى الرذيلة ، لأن الله نهى عن اتخاذ الكفار واليهود وأهل الشرك والأهواء أولياء ، لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، ولأن العزة تكون لله ولرسوله وللمؤمنين ، أما من يقف من المسلمين موقف المودة والتسامح ، ويؤمن جانبه ، ويعش فى موطن المسلمين ويكن بحاجة أمر الإسلام بمساعدته فيجوز التصدق عليه عند الحاجة ، ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء ، وأوجب بعضهم إنفاق الابن المسلم على أبيه الكافر ، وكل من يجب الانفاق عليه ، وأقول لا دلالة فى الآيات على الوجوب ، وإنما تدل على الإباحة من حيث البر بهم مصداقاً لقوله تعالى { وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً } [2] .

---

(١) الممتحنة آية ٩ .
(٢) لقمان آية ١٥ .

سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين :

إذا كان الإسلام قد نهى عن اتخاذ المشركين أولياء ونصراء ، لتكون العزة للمسلمين ، فإنه أمر بمعاملة غير المسلمين من أهل الكتاب بالحسنى ما داموا مسالمين ، ولم يتوقع منهم ضرر ، كما قال تعالى { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون } [1] ، وكذلك أمر بمعاملة المشركين بالحسنى ما داموا مسالمين ، مع أخذ الحذر والحيطة من جهتهم مصداقاً لقوله تعالى { وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم } [2] ، والمنهج الربانى فى المعاملة الإنسانية للجميع { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ... } [3] ، إن الإسلام حث على العطف والتسامح فى المعاملة حتى مع غير المسلمين ما داموا مسالمين ، فلذلك أمر الله ببرهم والإحسان إليهم والعدل فى معاملتهم وضمان حقوقهم بين المسلمين ، قال تعالى { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين } [4] وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، قالت : أتتنى أمى راغبة فسألت النبى صلى الله عليه وسلم أأدخلها ؟ قال نعم ، فأنزل الله الآية فيها ، وأخرج أحمد والبزار والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة على إبنتها أسماء بنت أبى بكر ، وكان أبو بكر طلقها فى الجاهلية ، فقدمت على بنتها بهدايا فأبت أسماء أن تقبل

---

(١) العنكبوت آية ٤٦ .
(٢) الأنفال آية ٦١ .
(٣) النحل آية ١٢٥ .
(٤) الممتحنة آية ٨ .

منها أو تدخلها منزلها ، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلى عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها فأنزل الله الآية [1] فالآية نزلت فى أسماء بنت الصديق تأمر بالمعاملة الحسنة للمشركين وغيرهم سواء أكانوا من الأهل عن طريق البر بهم والإحسان إليهم أو من الغرباء عن طريق حسن المعاملة معهم ، ومعنى الآية الكريمة " إن الله سبحانه لا ينهى عن أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتل ، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل ، بل أمر بالعدل فيما بيننا وبينهم ، من الوفاء بالعهد وضمان حقوقهم ، لأن الله يحب المقسطين أى العادلين ، وقال ابن زيد كان هذا فى أول الأمر عند الموادعة ، وترك الأمر بالقتال ثم نسخ ، وقيل كان هذا الحكم فى الصلح بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم ، وقال مجاهد هى خاصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وحكى القرطبى عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة [2] ، ونحن معه فى ذلك لأن الإسلام دين السلام ودين التسامح ما دمنا نأمن من جهتهم وخاصة إذا كانوا بين المسلمين ، وهذه طبيعة الإسلام السمحة مما أدى إلى قبول الناس لمبادئه والتعامل من خلال منهجه أخلاقيا وسلوكيا ليتحقق السلام والأمان للجميع .

---

(١) أسباب النزول للسيوطى ص٢٧٠ - ٢٧١ نشر مكتبة نصير .

(٢) فتح القدير للشوكانى ج٥ ص٢١٣ بتصرف .

خاتمة البحث :

إن التخلف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية اليوم ، يعد نتيجة لتخليهم عن الإسلام ، وان صلاح حال الأمم لن يتم إلا بإرادة أبنائها وصحوتهم من غفلتهم بصدق العزيمة واخلاص النية ، والجد المستمر فى العمل والإنتاج ليكون الشعب صاحب قرار نفسه ، ولا يعتمد على غيره ، بل ما زلنا نأمل فى غد مشرق للأمة الإسلامية ، تتوافر فيه الجهود ، وتتكاثف ، وتتحد الآراء على كلمة سواء ، ليعود للمسلمين مجدهم وكرامتهم ، ولتتحقق عزتهم وسعادتهم وواجب أولياء أمور المسلمين أن يتقوا الله فى الرعية ، وواجب على المسلمين والباحثين أن يتقوا الله فى أقوالهم ، وفى مدوناتهم ، فالأمانة العلمية والدينية تحتم على الجميع أن يعمل وباستمرار لتحرير الفكر الإسلامى من التعبية ، أو التدخل فى الفكر الوارد الدخيل ، كما فعل الرعيل الأول الذى تربى فى ظل تعاليم الإسلام الصحيحة ، قبل سيطرة الفكر المادى الذى قاده أعداء الدين ، فلقد ركز الأعداء كل خططهم للنيل من الإسلام ، لأنه مصدر الحضارة والثقافة والفكر ، وهيئوا لدعوة الاستشراق والتبشير عن طريق المفكرين الغربيين للقضاء على مناهج الإسلام متبعين الوسائل التالية :

١ - تشويه الإسلام والثقافة الإسلامية والتشكيك فى الدين .

٢ - العمل على إيجاد تخاذل روحى وشعور بالنقص فى المجتمع الإسلامى مما يدفع إلى الجنوح للمدنية الغربية .

٣ - إثارة الجدل بغية توسيع شقة الخلاف بين المذاهب والأديان والطوائف والدولة ، والعمل على إثارة النزاع كلما هدأ ، لظل المسلمون فى ضعف مما يمكن الأعداء منهم .

٤ - العمل الدءوب على جعل العالم الإسلامى فى خضوع دائم للاستعمال بكافة أشكاله وألوانه .

٥ - إيجاد المجادلات المختلفة التى تصرف المسلمين عن دينهم وعن التأمل فى الحقائق ، فاخترعوا وسائل الإعلام الهدامة ، وبث البرامج الشاذة لصرف المسلمين عنها ... وواجب الإعلام الإسلامى بما يمتلك من وسائل الإذاعة والتلفزيون والصحف اليومية ، التوجيه إلى الحقائق ، وبيان أطماع الدول الغربية في المنطقة ، لأن الإعلام يمتلك قوة جبارة فى السيطرة على نفوس المستمعين والمشاهدين والقراء ، وتشرف على ذلك الدول وتسيطر على برامجها ، وتسطيع توجيهها إلى ما فيه خير الأمم ونهضتها ، وفهمها لتعاليم دينها وشرعها ، وعلى الأمم الإسلامية ، أن تصحوا من غفلتها ، وأن تفيق من عمق سياستها وتتنبه إلى ما شرعه الله من كنوز ، وتعلم أن سر تخلفها وإذلال عدوها لها هو تنكبها الطريق المستقيم ، وسيرها خلف الشعارات البراقة التى دسها عليها ، إما مغرض حاقد يريد أن يفرق كلمة المسلمين ويحطم شوكتهم ، أو مبهور بحضارة الغرب الزائفة ، وتناسوا أن دين الإسلام هو صانع أعظم حضارة على ظهر الأرض ، فلقد وحد الصفوف ، وربط بين الناس برباط المودة والمحبة ، والولاء لله ولرسوله والمؤمنين ، وليحذر المسلمون من الولاء لأعداء الحق وعليهم أن يعلموا أن العدو يتربص بهم الدوائر ، ويوقع بينهم ليفرق شملهم ، وما يحدث الآن من ترويع وإرهاب للآمنين فهو من تخطيط الأعداء ، وليس بخاف ما يحدث فى فلسطين ولبنان والعراق وليبيا والصومال والجزائر وغيرها من قتل وتشريد وإيذاء للأبرياء وعلى الحكام العرب والمسلمين أن يدركوا ما تقوم به الدول الإستعمارية من بث السموم فى صفوف

المسلمين ، بوسائل كثيرة من أجل تفرقهم وتمزيقهم وعليهم أن يأخذوا منهجهم من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، ويمتنعوا عن التعامل مع هؤلاء الأعداء من النواحي الإقتصادية والتجارية وليقتصر التداول والتبادل والتناصح ، والتناصر بين المسلمين بعضهم بعضا ، ليتم التكافل ويتحقق الأمن والاستقرار لهم ، قال تعالى {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً .. } [1] الآية وآمل من الله أن يجمع المسلمين على كلمة سواء ، وأن يوحد بين صفوفهم ، وأن يكتب لهم العزة والنصرة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) آل عمران آية ١٠٣ .

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - أسباب النزول للسيوطى .

٣ - أسباب النزول للواحدى .

٤ - فتح القدير للشوكانى .

٥ - روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام للصابونى .

٦ - صحيح الإمام مسلم .

٧ - سنن أبى داود .

٨ - حاشية الجمل على الجلالين .

٩ - صحيح البخارى بحاشية السندى .

١٠ - التفسير الواضح د. محمد محمود حجازى .

١١ - فتح البارى لابن حجر .

١٢ - البحر المحيط لأبى حيان .

١٣ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

١٤ - تفسير الإمام البيضاوى .

١٥ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .

١٦ - أحكام القرآن لابن عربى .

١٧ – مختصر تفسير الطبرى .

١٨ – تفسير الإمام أبي السعود العمادى .

١٩ – مدارك التنزيل للإمام النسفى .

٢٠ – سنن ابن ماجه .

٢١ – رياض الصالحين .

٢٢ – الكشاف للزمخشرى .

٢٣ – سنن الترمذى .

٢٤ – كنز العمال سنن الأقوال والأفعال .

٢٥ – محمد رسول الإسلام والسلام .

٢٦ – سيرة ابن هشام .

٢٧ – جامع العلوم والحاكم لابن رجب الحنبلى .

٢٨ – منهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى .

٢٩ – التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى .

٣٠ – إحياء علوم الدين للغزالى .

٣١ – الأحاديث القدسية .

٣٢ – مفردات الراغب الأصفهانى .